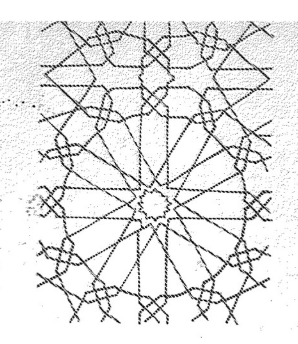
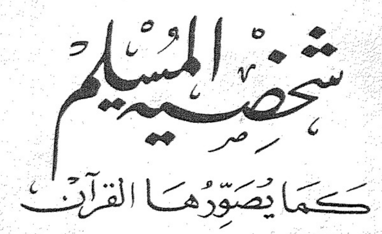
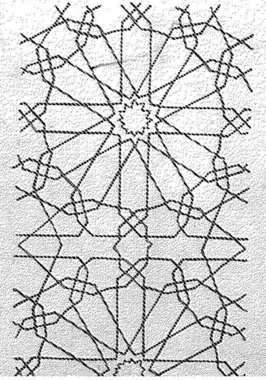




جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم



شخصية المسلم
كما يصورها القرآن



للصف الثالث من المرحلة الثانوية

تأليف
الدكتور مصطفى عبد الواحد

طبعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية



جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

شخصية المسلم

كما يصورها القرآن

للصف الثالث من المرحلة الثانوية

تأليف
الدكتور مصطفى عبد الواحد

طبعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية



مقدمة

نحمد الله تعالى ، ونرجو رحمته وتوفيقه .

ونقدم لأبنائنا وبناتنا طلاب وطالبات الصف : (الثالث الثانوى) بأنواعه (العام ، والتجارى ، والزراعى) ـ هذا الكتاب .

وأملنا أن يقرءوه وينتفعوا بما يقرءون ، حتى تطمئن نفوسهم لعقيدتهم الإسلامية ، ويقبلوا على عبادة الله بنفوس سعيدة ، تعرف ما فى هذه العبادات من خير لها فى الدنيا ، وذخر لها فى الآخرة .

ثم يسيروا فى معاملاتهم مع غيرهم فى الحياة على نسق إسلامى يراقب الله فى كل قول وعمل .

وبذلك يتحقق المجتمع المسلم الفاضل على أساس العقيدة السليمة ، والعبادة الصحيحة ، والمعاملات التى تتلاءم مع العقيدة والعبادة .

والله ولى التوفيق

البَابُ الأول

أساس البناء : العقيدة

العقيدةُ الصحيحةُ فى الله ، والكون ، والحياة ، هى أساسُ البناء الذى يضعُه الإسلامُ لتكوينِ المُسلمِ ، وهى القوّةُ الدّافعةُ للحياة كما يراها الإسلامُ . .

ومنها يَسْتَمِدُّ المسلم طاقَتَه ، وبها يحدِّد طريقَه ، ويبلغ غايته ، ومن هنا كان اهتمامُ الإسلام بقوتها فى نفوسِ أبنائِه ، فلا يرضى بها ضوءًا خافِتًا ، أو صوتًا مهمُوسًا ، ولكنه يريدُها جذوة [1] مُتّقدة وضِياءً يَغْمُرُ الآفاقَ ، حتى تُوَجِّه السلوكَ ، وتسيطرُ على المشاعرِ ، وتؤسِّسُ الواقعَ الكريمَ ، الذى يريدُه الإسلامُ للحياة ..

يُمَيِّزُ المسلمُ بتلك العقيدةِ ارتفاعًا عن حُدودِ المادّة الضيِّقة بحيث يرى الكونَ كلَّه وَحْدَةً لَاتَنْفَصِمُ [2] ، فيؤمنُ بما لايراهُ مّما أخبَرَهُ به خالِقُه العظيمُ كما يؤمنُ بما يراهُ ، فيصبِحُ عَالَم الغيبِ عنده كعَالَمِ الشهادةِ ، وتنفسحُ طاقتُه الروحيّةُ ، ويسمُو فكره عن حدود الحَوَاسِّ الضئيلة التى لاتدرِكُ من حقائقِ الكونِ إلا القليلَ .

وهذه العقيدةُ من الخطرِ فى البناء الإسلامى ، بحيث -

---

(١) الجذوة : الجمرة المتقدة .

(٢) لا تنفصم : لا تنفصل .

استغرقَت الدعوة إليها فى فجْرِ الإسلام ثلاثَةَ عشرَ عامًا ، حتى ثبَّتت جُذُورَها وتأكَّدَت حقائِقُها ، وبعد ذلك تملَّكت زِمامَ النَّشاط الإنسانى ، وقادت الحياة .

وهذه العقيدةُ هى التى تتعرضُ اليومَ لحرْبِ الجاحِدين ، الذين يرون فيها عَقَبَةً أمام أطماعهم ، وحِصْنًا منيعًا يعوق تخريبَهم ، بعد أن رأوْا استِعْصَامَ الأُمة الإسلاميَّةِ بها ، ولجوءها إليها فى مواطِنِ الخطر .

من هنا فإنَّ على الأُمة الإسلاميّةِ أن تحميَ العقيدةَ كما تحمى الأرض بل أشدّ ، فهى الكيان والبقاء .

• • •

الأسئلة

١ - ما أساس البناء الذى يضعه الإسلام لتكوين المسلم ؟ وما أثر هذا الأساس فى الحياة ؟

٢ - يميز المسلم بتلك العقيدة ارتفاعًا عن حدود المادة الضيقة بحيث يرى الكون كله وحدة لاتنفصم فيؤمن بما لا يـراه مما أخبر به خالقه العظيم ، كما يؤمن بما يراه .

(أ) (فيؤمن بما لايراه كما يؤمن بما يراه) ما الذى أفاده هذا التشبيه بالنسبة للعقيدة الصحيحة ؟

(ب) ما أثر هذا الإيمان فى حياة المسلم ؟

(جـ) لماذا يحارب الجاحدون العقيدة الإسلامية ؟ وماذا يجب على الأمة الإسلامية أمام هذه المحاربة ؟

• • •

مؤمن بالله

الأساسُ الأولُ الذى يقوم عليه بناء شخصية المسلم ، إيمانُهُ بأنَّ للكون خالِقًا واحدًا تفرّد بصفاتِ الكمال ، وتنزّه عن مشابهة خلقه فى ذاتِه وصفاته .

وتلك العقيدَةُ هى مَفْرَقُ الطريق الذى يميِّزُ بين المسلم وغيره . وعليها يتوقَّفُ عملُه ويتحدّدُ اتجاهه .

« يَأَيُّها الناسُ اذْكُرُوا نعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غيرُ اللهِ ! يَرزُقَكمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لَاإِلٰهَ إلَّا هُوَ فأَنَّى تُوفَكُون »[١]

ومن العجب أن الإنسانية فى عصرنا هذا قد ارتقت أمدًا بعيدًا فى آفاق الحضارة والمدنية . ولكنها لم تقرن هذا التقدم المادى بتقدم روحى ، يريها حقائق الوجود ، ويفتح أمامها كتاب الحياة .

فما تزال كلمات الشك والإلحاد تتردد على ألسنة من يدعون الفكر والعلم ولا يعلمون أن إنكار وجود الله سبحانه أشد

---

(١) سورة فاطر آية ٣ ، وتؤفكون ، أى : تصرفون عن الحق .

درجات الجهل ، وأقبح أنواع العمى عن الحق والضلال عن الصواب ، كما يقول الله سبحانه :

« ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ويتَّبعُ كُلَّ شَيْطَانٍ[١] مَرِيدٍ[٢] كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ[٣] فَأَنَّهُ[٤] يُضِلُّهُ »[٥] .

والمسلم يعلم أن إثبات وجود الله وخَلقه لهذا الكون ليس عسيرًا على العقول ولا بعيدًا عن فطرة الإنسان وعلمه ، فالإنسان بطبعِه يهتدى إلى ربِّه مادام سليمَ الفِطْرة بريئًا من الأهواء والعلل .

« أفى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ؟ »[٦] .

ولكنَّ انطماسَ البصيرةِ ، واتِّباعَ الهوى والجهالة ، يحجُبُ الجاحِدِين عن نُورِ الإيمان وطُمَأْنِينَةِ اليَقِينِ .

ومن هنا فَنَّدَ[٧] القرآنُ أوهامَ الجاحِدِين الذين تتشابَهُ قلوبُهم وأقوالُهم فى كلِّ زمانٍ .

---

(١) شيطان : مخلوق خبيث لا يرى يغرى بالفساد والشر .

(٢) مريد : عات زائد فى الشر .

(٣) تولاه : أحبه ومال إليه .

(٤) يضله : يعدل به عن الطريق المستقيم .

(٥) سورة الحج آية ٣ ، ٤ .

(٦) سورة إبراهيم آية ١٠ .

(٧) فند : أبطل .

يسألُ القرآنُ الذين يَشُكُّونَ فى وجودِ الله ولا يُوقِنُون به ، هذا السؤال الذى يكشِفُ عن حيرتهم ، وفساد تفكِيرهم ، فيقول سبحانه :

« أَمْ خُلِقُوا منْ غَيْرِ شَىْء أَمْ هُمْ الخالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ؟[1] » .

لكنَّ الجاحدين لا يملِكُون الجوابَ ، فهم لم يخلُقُوا أنفسهم ، ولم يخلُقُوا فى الكون ذَرَّة واحِدة ، وهم كذلك لا يعرِفون ربَّهُم ولا يؤمنون به : « . . بل لا يُوقِنون » فيعِيشُون فى ظلام الكُفر ، وحيْرَةِ الشكِّ ، لا يصِلون إلى الإيمانِ ولا يهتدُون بنوره . .

* * *

إن المسلمَ يرى أن نشأةَ الحياةِ على هذه الأَرضِ ، ووجودَ الإنسانِ فى هذا الكونِ أمر خطير ، يستحقُّ التفكيرَ والاهتمامَ ، أما المادِّيُونَ فيَرَوْنَ أَنَّ الحياةَ تطوُّر طبيعيٌّ وأَنَّ الإنسانَ حَلْقة من حلقات هذا التطوُّر المادى فى الخَلْق ، ولا يؤمنون بالخالق الذى وهب الإنسانَ نعمةَ الوجودِ ، واستخلَفَهُ فى هذه الأَرضِ .

وهذا الجحودُ فى حقيقته احتقارٌ لشأْنِ الإنسانيَّةِ وإزراء[2]

---

(١) سورة الطور آية ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) إزراء : تقصير .

بغاية الحياة ، إلى أن ينطلِقَ البشرُ كالسوائم [١] ، لا يعرفُون غايةَ الوجودِ ، ولا يذكرُون أمانة الحياة ، ولا يدركونَ مبدأً ولا نهايةً ؛ ويجعلُ الحياةَ مَهْزَلَةً حَقِيرَةً لا حكمة لها ولا غاية .

إنَّ الكونَ كتابٌ مفتوحٌ مَلِيءٌ بالمشاهِدِ والدلائِلِ ، التى تربط هذا الوجودَ المُشَاهَد بالإِلٰه الذى أَحسنَ كلَّ شىء خلَقَه ثمَّ هَدَى..

فأَىُّ عينٍ تتعامَى عن هذا الصنع الباهر والإبداعِ العجيبِ ؟

إنَّ مشاهدَ الطبيعة المنتشِرةَ فى هذا الكونِ أرضِهِ وسمائِهِ ينبغى أن تكونَ طريقًا يتوصل منه الإنسانُ إلى معرفة المُبْدِعِ العظيم .

* * *

وقد لفتَ القرآنُ الأَنظارَ إلى دراسةِ مشاهدِ الكونِ ، ومعرفة دلالتها الناطقة على خالق الحياةِ . وهذا أقربُ طريق إلى الإيمان باللهِ وأصدقِه . يقول سبحانه :

« قلِ انْظرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ [٢] » .

« وفِى الأَرضِ آياتٌ للمُوقِنِين وفِى أَنْفسِكم أفلا تبْصِرُون ؟ » [٣].

إنَّ الفِطرَةَ السليمةَ تتوصَّلُ من هذا الإبداعِ إلى المُبْدِعِ

---

(١) كالسوائم : كالحيوانات .

(٢) سورة يونس آية ١٠١ .

(٣) سورة الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

الحكيم ، وتدرك أنّ الكون يَحْكمُه نظامٌ شامِلٌ ، لا مصادفةٌ عمْيَاء ، وقدرة مُهَيْمِنَةٌ تصرِّفُ الأُمورَ بتقديرٍ وحِكْمَةٍ وقد أثبتت الكشوف العلميّة ، والبحوث الحديثة ، هذا النظامَ الدقيقَ الذى يشملُ الكون ويسيِّرُ الحياة . . كما أثبتت أنَّ كلمة المصادفة التى يُلوكها الجاحِدُون كلمة جاهِلة لا معنى لها . فأىُّ مصادفة تلك التى أبدعت هذا العالَمَ ، وخلقت فيه الإنسان ، ودبرت أُمورَه بترتيبٍ وإحكامٍ ؟ !

إنَّ القرآنَ يَعرِضُ لنا حقائقَ الوجود التى تنفى أوهام الجاهلين ، وأكاذيبَ الجاحدِين . . بما يُثبِتُ أنَّ قدرة الله هى التى أنشأت هذا الوجودَ ، وأنَّ الله وحدَه هو الخلّاق العَليم ، يقول سبحانه :

« اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاء رَبِّكُمْ توقِنونَ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْهَارًا وَمِنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون »[١] .

---

(١) سورة الرعد ٢ ، ٣ .

ولكنَّ أفكارَ الماديِّين تغشاها ظلمات الشك ، فلا يُؤمنون ولا يعقلون ، والإيمان بحاجةٍ إلى استعدادٍ نفسِيّ يصلُ الحلقاتِ ويربِط بين الظواهِرِ .

وإن أيْسرَ مظاهِرِ هذا الكونِ لَتَقودُ النَّظرَ السليمَ إلى الإيمانِ بخالق الكونِ والحياةِ ، وما على النَّاسِ إلا أن يفتَحُوا أعيُنهم لِيَرَوْا قدرة ربهم ، فتؤمِن به القلوبُ ، وتخشَعَ لجلاله . . والقرآن يدعُو الإنسانَ إلى النظر والملاحظة والتأمُّل فيما تقع عليه الأبصار ، كما يقول الله عز وجل :

« أفَلَا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإلَى السَّماء كَيْفَ رُفِعتْ ، وَإلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإلَى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟ »[1] .

ولكن الجاحدين يفتحون أعيُنًا عُمْيًا ، فلا يصِلون إلى إيمانٍ ولا يهتدون لِيَقينٍ .

والمسلمُ يعتقدُ أنَّ الله – سبحانه وتعالى – لم يترُك هذا العالَمَ بعد ما خلقه ، بل لا يزال – سبحانه – يدبِّر أمرَ الكونِ ويصرِّفُ أحواله ، ويرعى عبادَه ويقبض بزِمام الحياة :

---

(١) سورة الغاشية ١٧ – ٢٠ .

« له مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وإلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمور »[١] فكيف يشكُّ الكافرون فى ربِّهم ومقاليد أُمورِهم فى قبْضَتِه ، وكلُّ أقدارهم تحت سلطانه ؟

« قُل : اللّهمَّ مَالِكَ المُلْكِ ، تُؤتِى المُلْكَ منْ تَشَاءُ ، وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وتعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[٢] .

فهل أَمِن الكافرُون انتقامَه فى الدنيا ، وهل يَقْدِرُون على دفع بأْسِه وَردِّ عقابه :

« أَأَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكمْ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ . أم أَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكمْ حَاصِبًا . فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ . وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ »[٣] .

وإن الأَرزاق والأَقوات بيد الله ، فإن منع رزقه عمن يجحد به فهل يجد له رازقًا سواه :

---

(١) سورة الحديد ٥ .

(٢) سورة آل عمران ٢٦ .

(٣) سورة تبارك ١٦ — ١٨ .

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يرزُقُكُمْ إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ؟ بَل لَجُّوا فى عُتوٌ ونفور »[١]

« قلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غوْرًا ، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَعِينٍ ؟ »[٢]

إنَّ نِعَمَ الله تغمُر العباد ، وإحسانه يأْتيهم فى كلِّ آنٍ ، فكيف يجحد فضلَه الجاحدُون ، ويعمَى عن قُدرته الضالُّون ؟ . . إن هذا الجحودَ لايستقر إلا فى أنفُس الفاسقين ولا يملأُ . إلا قلوب الغاوين ، كما يقول سبحانه :

« قلْ : مَنْ يَرْزُقكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمَّنْ يَمْلِك السَّمْعَ والأَبْصَارَ ؟ ومن يُخْرِجُ الحَىَّ مِن المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللهُ . فَقُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ ؟ فَذَلِكمْ اللهُ رَبُّكمُ الحقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَلَالُ ؟ فأَنَّى تُصْرَفُون . كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ علَى الَّذِين فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[٣] .

* * *

(١) سورة تبارك ٢١ .

(٢) سورة تبارك ٣٠ .

(٣) سورة يونس ٣١ — ٣٣ .

فلا عجَب أن يكونَ أساسُ عقيدةِ المسلمِ هو الإيمانُ بالله ، واليقينُ بِوجُودِه ، وتوحيدِه وتنزيهِه عن الشرَكاء .

وتوحيدُ الله سبحانَه بمعنى إفرادُه وحدَهُ بالعبادةِ والخضوع هو غاية من غاياتِ الإسلام ، التى جاء ليثبتها فى أنفُس العباد ، وهو كذلك عنصرٌ أساسِىٌ فى عقيدةِ المسلم .

فقد كان هناك من يعرِفُ الله ، ويؤمنُ بأنَّه الخالقُ الرازق ، ومع ذلك يُشْرِكُ معه غيره ، من الحجارة ، أو من الكواكبِ ، أو منَ الناس ، وذلك ضلالٌ بعيد .

فإذا أيقنَ الإنسانُ بأنَّ الله هو الذى خلقه ، وهو الذى يملك أمره ، فما معنى أن يُشْرِك به جمادًا ، أو حيَوانًا ، أو إنسانًا ، وكلُّهم من خلق الله ؟ . . إن هذا السقوطَ فى التفكير قد استدعى حربًا شدِيدةً على الشِّرك اشتمل عليها القرآن .

يقول الله سبحانه :

« يـأَيُّهَا النَّاسُ اعبدُوا ربَّكم الذى خلَقَكم والذين مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُون . الذى جَعَلَ لكُم الأَرض فِرَاشًا والسَّمَاءَ بِناءً ، وأَنْزَلَ مِن السَّمَاءِ ماءً فأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُم ، فَلَاتَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ [1] » .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢ .

فأَىّ حُجةٍ للشرك الذى هو دليلٌ على فساد العقل ، وخُبْثِ النفس [١] . وانطماسِ البصيرة [٢] ، ولهذا كان أعظم ذنب عند الله فلا يناله الغفران ، ولا يشمله العفو :

« إنَّ اللهَ لايَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ، إنْ يَدْعُون مِنْ دُونِهِ إلَّا إنَاثًا ، وإنْ يَدْعُونَ إلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا [٣] » .

أما التوحيد فهو ثورة على العبودية لغير الله ، تلك العبوديّة التى كانت وصْمةً فى جبين الإنسانيَّة من قديم الزمان وما زالت حتّى اليوم فى بعض أنحاءِ الأَرض . !

وما من رسولٍ إلا واجهَ قومه بدعوة التوحيدِ وقام ينادى :

« يا قَوْمِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ » [٤] .

ولكن سفاهة المشركين أعمت أبصارهم وأضلتهم عن سواء السبيل

« فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ

---

(١) خبث النفس : أعمالها المنكرة .

(٢) أنطماس البصيرة : فسادها .

(٣) سورة النساء آية ١١٦ ، ١١٧ .

(٤) سورة الأعراف آية ٥٩ .

تَدْعُوهُمْ إِلَى الهُدَى لَايَتَّبِعُوكُم سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فادْعُوهم فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُل : ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فلا تُنْظِرُونَ[1] »

* * *

والمُسلِم الذى يؤمنُ بربّه وحدَه لا شريك له ، لابدَّ أن يُوقِن بأَن الله سبحانَه مُتَّصفٌ بكل صفات الكمال ، مُنَزَّهٌ عن جميع صفات النقص وهذا أمرٌ يقطع به العقلُ قبل أن تَرِد به نصوص الشرع .

فإنَّ من أَبْدَع هذا الكون ، ودبَّرَ أمورَه بحكمتِه ، وخضع له كلُّ شيء فيه ، لابدَّ أن يكون ذا كمالٍ ، وجلال ، وقدسية ، وعظمة ، لا يلحقه عيبٌ ولا نقصٌ .

وتلك حقيقة يبصرها القلب ويطمئن إليها الوجدان .

وقد وصفَ اللهُ - تباركَ وتعالى - نفسَه لعبادِه كي يَعْرِفُوه ويحمَدُوه ويُفْرِدُوه بالعِبادة والخضوع . فإنَّ من يُدرِكُ عظمةَ

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٩٠ - ١٩٥ .

ربُّه وجلالَه لا يشركُ به غيره ولا يعدِل عنه إلى سواه . . ولكنَّ الجاهلين به هم الذين لا يَقْدِرُونَه حقَّ قدره ولا يعرفون كماله وجلاله :

« وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَــوْمَ القِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ »

فاللهُ سبحانه حيٌّ لا يموتُ ولا ينام وحياتُه سبحانه هي أصل كل حياة ومنشأُ كل وجود . .

« اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلَا نَــوْم لَهُ مَا فِى السَّمَواتِ وَمَا فِى الأَرْضِ[1] » .

والله – سبحانه – قديمٌ لا أول لوجوده . . . فــلم يَسْبِق وجوده عدمٌ . وهو باقٍ ليس لوجوده نهايةٌ وليس لحياتهِ فناءٌ . . كما يقول سبحانه : « هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[2] » .

وهو – عز وجل – مخالِفٌ لكل المخلوقات ، فلا يشبِهُه منها شيء . . وكيف يشبه المخلوقُ خالقه . . يقول الله سبحانه :

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٤ .

(٣) سورة الحديد آية ٣ .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [١] » .

ووجودُه سبحانه وجودٌ ذاتِيّ . . لا عِلَّة له ، ولا سببَ ، فوجودُه أصل كل وجودٍ ، كما يقول الله عز وجل :

« قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [٢] » .

ومعنى الصّمد : الذى يلجأُ إليه كلُّ موجود ، ويفتقر إليه كلُّ حَيٍّ ، وهو الغنيُّ عن خَلْقِه ، وهو سبحانه واحدٌ ، لا مِثْلَ له ، ولا شريك .

ولذلك أمر عبادَه أن يوحِّدُوه ، ويفردُوه بالعبادة والخضوع . وقد أثبت القرآن أنَّ الله واحِدٌ ، ليس له شريكٌ ، فى مُلكِه ، ولا فى خَلْقه ، كما يقول الله عز وجل :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا . . » [٣] .

« إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ . وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » [٤] .

---

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) سورة الأنبياء ٢٢ .

(٤) سورة المؤمنون ٩١ .

والآيةُ تشير إلى حقيقةٍ أثبتها العلم الحديث ، وهى أن النظام الذى يسرى فى هذا الكون نظامٌ واحد ، لاتَعارُض فيه ولااختلافَ فالنِّسبُ التى تتكون منها الأَجسامُ واحدةٌ ، والقوانينُ التى تَحْكُمُ مظاهرَ الطبيعة أيضًا واحدة ، وكل مافى هذا الوجودُ يشير إلى أن خالِقه واحد .

« هَذَا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِين مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »[1] .

وهو عزّ وجلّ سميعٌ ، يسمعُ الأَصوات جميعًا ، وإن كانت همْسًا أو مناجاة . .

« قَدْ سمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُك فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »[2] .

وهو بصيرٌ ، يطَّلعُ على كلِّ ما فى الوجود ، ويراقبُ كلَّ موجودٍ :

« سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتخْفٍ بِاللَّيْلِ وسَارِبٌ بِالنَّهَارِ[3] » .

---

(١) سورة لقمان ١١ .

(٢) سورة المجادلة ١ .

(٣) سورة الرعد ١٠ .

« وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ »[١] .

وهو سبحانه متكلِّم ، بلا كيفيَّةٍ ؛ فليس كلامُه مثل كلامنا . بل هو صِفةٌ قائمةٌ بذاته تتنزَّه عن مشابهة العباد .

« وكلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »[٢] .

وهو قادرٌ ، وليس لقدرته حد :

« إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[٣] . وهو مُريد . . وليس لإرادته مؤثِّر من غيره فهو سبحانه يفعل ما يشاء : « فعَّالٌ لِما يُرِيدُ »[٤] .

وعلى العبادِ أن يعرفُوا صفاتِ ربِّهم ، وأوصافِ كماله ، وأن ينزهوه عن كل نقصٍ ومشابهة لخَلْقه ، فإنَّ ذلك واجبُ العبد نحو خالقه العظيم .

« سَبِّح اسمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ، والَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى »[٥] .

---

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) سورة النساء ١٦٤ .

(٣) سورة فاطر ١ .

(٤) سورة البروج ١٦ .

(٥) سورة الأعلى ١ — ٣ .

« فَسُبْحَانَ اللهِ حين تُمْسُونَ وَحِين تُصْبِحُون ، وَلَهُ الحَمْدُ فى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُون » (١) .

• • •

تلك صورة عن إيمانِ المسلم بربِّه وعقيدته فيه . .

ليس فيها مشكلات ولا محيرات ، ولا طلاسم ولا طقوس .

بل هى بسيطة واضحة تعتمد على حقائق الكون والحياة . .

والمسلم بهذا المعنى يرى ربَّه فى كلِّ شىء ، ويذكُرُه فى كلِّ ماتقع عليه عيناه ، ويتصلُ به فى حياته ، فى مشاهد الطبيعة ، وأحداث الحياة .

« إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ الَّذِين يَذْكُرُون الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُون فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هـذَا بَاطِلًا سُبْحَانك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (٢) .

« إنَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِى خَلْقِكُمْ وما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . واخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ،

---

(١) سورة الروم ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِن السَّمَاء مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْض بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون »[1] .

* * *

وهذه العقيدةُ الواضِحَةُ البسيطة هِيَ الأَساس الذى يقومُ عليه تصوُّر المُسلِمِ لِلْكَوْنِ والحياةِ .

وهى التى تَهَبُه الطُّمَأْنِينَة والثقة واليقين ، وتوضِّح أمامه غوامِضَ الوجودِ .

« الذين آمَنوا وتَطْمَئِنُّ قلوبُهمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوبُ »[2] .

فهى تقْضِى على القلقِ ، والحَيْرةِ ، والشك ، والارتيابِ .

وتنْشِئ إنسانًا يحدِّد اتجاهَه فى الحياةِ على أَساسٍ واضحٍ مُستنيرٍ مستقيم . .

وهى بعد ذلِك أعلى مراتب المعرفة ، وأكمل درجات اليقين .

ومن هُنا كانَت النَّفسُ الخاوِية من العقيدةِ الاسلاميّة نفسًا ضائعةً حائِرةً لاتطمئِنُّ ولا تستريحُ ، كما قال سبحانه :

---

(١) سورة الجاثية ٣ — ٥ .

(٢) سورة الرعد ٢٨ .

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِن السَّمَاءِ فَتَخْطَفه الطَّيْرُ أَو تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ »[1] .

وصدق الله العظيم :

« وَمنْ يُؤمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَه . . »[2] .

• • •

(١) سورة الحج ٣١ .

(٢) سورة التغابن ١١ .

الأسئلة

(١)

ومن العجيب أن الإنسانية فى عصرنا هذا قد ارتقت أمدًا بعيدًا فى آفاق الحضارة والمدنية ، ولكنها لم تقرن هذا التقـدم المـادى بتقدم روحى يريها حقائق الوجود ، ويفتح أمامها كتاب الحياة .

(أ) ما العجيب الذى تشير إليه العبارة السابقة ؟ ولمـاذا كان عجيبًا ؟

(ب) ما الأساس الأول الذى يقوم عليه بناء شخصية المسلم ؟ وما أثر ذلك فى حياة الإنسان ؟

(جـ) (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض) ؟ إلى أى شىء تحثنا هذه الآية الكريمة ؟ وما أثر الاعتبار بما ترشد إليه ؟

(٢)

وقد لفت القرآن الأنظار إلى دراسة مشاهد الكون ، ومعرفة دلالتها الناطقة على خالق الحياة ، وهذا أقرب طريق إلى الإيمان

بالله وأصدقه ، يقول سبحانه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

(أ) ما الذى لفت إليه القرآن الأنظار ؟ ولماذا ؟

(ب) إلى أى شىء يدعونا قوله تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) ؟ وما المقصود بالنظر فيهما ؟

(جـ) صورة إيمان المسلم بربه وعقيدته فيه تعتمد على حقائق الكون والحياة وضح ذلك .

• • •

مؤمن بالآخرة

يعيشُ المسلمُ فى هذه الدنيا ونظرُه يمتدّ إلى الحياة الباقية ، فهو يدرك أنّ الإنسانَ لم يُخْلَق للفناء ، وإنّما خُلِقَ للبقاء ، وأنّ هذه الدنيا مرحلة فى الطريق وليست هى نهاية المطاف . . ومن هنا يختلِفُ نظره إلى الحياة عن غيره ، ويسلك فيها سبيل المؤمنين .

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَارَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللهَ لَايُخْلِفُ المِيعَادَ »[1] .

* * *

فالمسلمُ يعلم أنّ من أُصولِ الإيمانِ التى لابدّ من التصديق بها ، أنّ هناك حياةً أُخرى ، تعقُبُ فناء هذا العالم ؛ يجد فيها كلُّ إنسانٍ الجزاء العادل على ما قدمه فى دنياه .

ولا يَغْنِيه أنْ يُكذِّبَ بعضُ الناس بالبعث ، ويُنْكِرُوا الحياةَ بعد الموت ، فمِنْ قديم الزمانِ كان هناك ماديُّون يكفرون بالآخرة

---

(١) سورة آل عمران ٩ .

وَيقصُرُون اهتمامهم على هذه الحياة الدُّنيا ، غير مصدِّقين ببعث ، ولا مُؤمِنِين بجزاء .

وقالوا : « إنْ هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[١] .

بل كانوا يَرَوْن أنَّ عقيدةَ البعث خُرافة قديمة أشاعها الأوَّلُون ، وكانوا يسخرون منها قائلين :

« أئِذَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ، إنْ هَذَا إلَّا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ »[٢] .

وبلغَ بهم الجُحودُ بالبعثِ مُنْتَهَاهُ فأقسمُوا أن لنْ يكون :

« وأقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ[٣] لَايَبْعَثُ[٤] اللهُ مَنْ يَمُوتُ[٥] »

وأكبرُ ما يدفعُ الجاحِدين إلى التكذيب باليوم الاخرِ ، أنهم يريدون إطلاقَ العَنَانِ لأنفسهم ، فلا يتقيّدون بمبدإ ولا خُلُقٍ ، ولا يرقُبُون جزاء ولا يرهَبُون حِسابًا ، ولا يرجُون بعثًا ، ولاحياةً

---

(١) سورة المؤمنون ٣٧ .
(٢) سورة المؤمنون ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) جهد أيمانهم : بالغوا فيها .
(٤) لا يبعث : لا يحي .
(٥) سورة النحل آية ٣٨ .

ولا نشُورًا ، كما قال الله عز وجل : « أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَه ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه ، بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَه ! » [1]

• • •

والمسلم يؤمنُ أنَّ اليوم الآخر نتيجة لازمة لقيامِ هذه الحياة الدنيا ، فالحياةُ ميدانُ كبير ، شهد وما يزال يشهدُ تصارع الحقِّ والباطلِ ، وتنازُع البقاء ، وظُلْمَ الأقوياء للضعفاء .

لقد شهدت الحياةُ وما تزال تشهد دماء سُفِكَتْ بغير حق ، وحقوقًا اغتُصِبَتْ بالعدوان والقَهْر .

كما شهِدت طُغيان الشهواتِ ، وصراعَ الرغبات ، وانتهاكَ الحُرُمات : . !

فلا بدَّ من يومٍ يظهرُ فيه الحقُّ ، ويُنْصَفُ فيه المظلومُ ، ويَلْقى كلُّ إنسانٍ ثمرةَ سَعْيِه فى الحياة . .

ولذلك يردّ القرآنُ على الجاحدين الذين أقسمُوا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بقوله :

« . . بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [2] .

---

(١) ليفجر أمامه : ليكفر بالبعث .

(٢) سورة القيامة آية ٣ — ٦ .

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ » [١] .

ففى اليوم الآخر تتَّضحُ الحقائقُ ويُفصَلُ فى القضايا التى طالَ فيها الخلاف !

• • •

والمسلمُ يرى أنَّ الحياةَ الدنيا دُون الآخرةِ لا معنى لها ، وإنَّما تظهرُ قيمتُها وتتَّضحُ جَدْوَاها[٢] حين تعقُبُها تلك الحياةُ التى تتحقَّقُ فيها النَّصفة[٣] ، ويقام فيها العدْل ، وتُصحَّح الأوضاع .

ولهذا يصفُ القرآن الدنيا بأنَّها لهو ولعب ، بالنَّظر للآخرة التى هى الحياة الحقيقية . يقول تعالى :

« وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الحَيَوَانُ ! » [٤] .

فالذين يُنْكِرُون الآخرةَ ويكفُرُون بالبعثِ ، يتجاهلُون المرحلَةَ

---

(١) سورة النحل ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) جدواها : فائدتها .

(٣) النصفة : العدل .

(٤) سورة العنكبوت ٦٤ والحيوان : الحياة العظيمة .

الكبرى من حياةِ هذا الإنسانِ ، ويقْصُرُون نظرَهم على الفترةِ القليلةِ التى يحياها فى الأرضِ .

وهم لذلك تَضيقُ آفاقُهم ، وتَسْخَفُ تصرُّفاتُهم ، لأنهم ينظرُون إلى الدنيا على أنها الميدانُ الوحيد .

* * *

ولقد بلغ من ضلال هؤلاء الجاحدين ، أنْ أنكرُوا قدرةَ الله على البعث ، واعتقدوا استحالةَ أن يحيا الإنسانُ بعد الموت . وهو وهمٌ لا دليلَ عليه .

فإنَّ قدرة الله لا يستحيلُ عليها شيء .

والله — سبحانه — قد خلق هذا الإنسانَ ، وأوجده من عدم ، أفلا يَقْدِرُ على إعادته كما بدأه . . ؟ والإعادة أهْونُ من الابتداء .

ولقد ناقش القرآنُ أوهام المكذِّبين بالبعث ، فأظهر افتراءهم وكشفَ بُهْتَانَهم ، وهدمَ باطلَهم الخبيث .

يقول سبحانه :

« ويَقُولُ الإنسانُ : أئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حيًّا ؟ أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسَانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا . . »[١]

(١) سورة مريم آية ٦٦ ، ٦٧ .

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ »(١)

إن من العجيب أن المكذّبين بالآخرة يَغْفُلُون عن قُدرة الله التى تظهر آثارها فى آفاقِ الكون ، وفى أنفُس الناس .

ونشأة الإنسانِ بأطوارها أثرٌ من آثار قدرة الله ، وهى كذلك دليل من أدلّة البعث . فكيف يكذِّبُ الجاحدون بالآخرة وفى أنفسهم الدليل . . !

يقول الله سبحانه :

« يأَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مَنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مانَشَاءُ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ومِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا . وتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً (٢) فإذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ (٣)

---

(١) سورة يس آية ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) هامدة : فاقدة النداوة والرطوبة التى يكون عليها النبات .

(٣) ربت : ازداد نمو نباتها .

وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور »[1] .

• • •

ولما كان الإنسان لايصل إلى اليقين إلا بدليل حي يثبت إيمانه ، ويدعم عقيدته ، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله — سبحانه — قد بعث أمواتًا بعد موتهم ، وردهم إلى الحياة .

كل ذلك لئلا يشك أحد فى قدرة الله على البعث ، أو ينكر الحياة بعد الموت ، وقد كان هذا استجابة لإبراهيم الخليل — عليه السلام — الذى سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى . . !

« وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى . قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا . واعلم أن الله عزيز حكيم »[2] .

وقد كان إبراهيم الخليل فى ذلك متطلبا لآية باهرة ، تقطع

---

(١) سورة الحج ٥ — ٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٠ ومعنى صرهن إليك : اعرفهن وميزهن . فذبحها إبراهيم وقطعها وفرقها فى الجبال .

ألسنةَ الجاحدين الذين طالما ارتابوا فى الحياةِ بعد الموت ورأوْا فى ذلك خرافة من أساطير الأوّلين ، ومِثلُ هذه الآيةِ التى رجَاها إبراهيمُ ، واستجاب له فيها ربه ، تظلُّ عَلَمًا من أعلام الإيمانِ ، ودليلا من دلائِل القدرة الإلَهية على مر الدهور يصبح حجة قائمةً على كلٍّ من خوطِبَ بأمانةِ التكليف ، وحمل رسالةَ الحياة .

وهذه الآية تثمِرُ طمأنينةَ القلب ، وهى مَرْتَبَةٌ فوق الإيمانِ ، إذ هى السكون والأمن ، فلا قلقَ ولا ارتِيابَ ، وليس هذا لإبراهيمَ وحده ، بل هو فى ذلك مُتَحَدِّثٌ باسمِ الإنسانِ نائبٌ عنه فى معايَنة دلائِل الإيمان .

وكذلك قِصَّةُ العُزَيْز وحِمارُه ، التى جعلها القرآن دليلًا حيًّا يملأُ القلوبَ باليقين .

« أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ موتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَال : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ! قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ! فَانْظرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ [١] ، وانْظرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيةً لِلنَّاسِ ! وَانْظرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ

(١) أى : لم يتغير .

نُنْشِزُها [١] ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٢] ! » .

إنَّ الرجلَ استغربَ بعْثَ الله للأَمواتِ ، وسأَل كيف يُمكنُ أَنْ يبعثَهم اللهُ ؟ فأَراهُ الله كيف بعثَه هو نفسه ! بعد أن صار عِظاما باليةً ، وترابًا لا حركة فيه ولا حياة . . !

وكلُّ هذه دلائلُ يؤمنُ بها المسلمُ فتملأُ قلبَه يقينًا بالآخرة ، واطمئنانًا إلى الحياةِ بعد الموت .

« كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »[٣].

* * *

أما الذين يكفرون بالآخرةِ فإنَّهم يجعلون الإنسانَ شيئًا حقيرًا لا قيمة له فى الكونِ ، ولا رسالةَ له فى الحياة .

ويعتَبِرُون الحياة مَهْزلة لا هدَف لها ، ولا غايةَ من ورائها .

وهذا ما أنكرهُ الإسلام على هؤلاء العابِثين .

يقول الله سبحانه :

---

(١) أى : نرفعها من الأرض ونعيدها إلى أجسامها

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٤ .

«أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُون؟[1] ».

فكيف يمكن أن تقومَ هذه الدُّنيا بتاريخها الطويل ، وصراعها الرهيب ثم لاتكونُ لها عاقبةٌ ، ولا يكون وراءها هدف . ؟ !

إن هذا وَهْمٌ عابِثٌ لا يؤمن به إلا الضالون ، ولا يراه إلا الكافرون كما يقول الله سبحانه :

« وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ قَوْلُهم : أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جدِيدٍ ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِم ، وأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون[2] » .

• • •

وحتى اليومَ فلا زال هناك من يكذِّبون بالآخرة ويشكِّكون النّاسَ فيها .

وهؤلاء حائرون ، يائِسون ، يعيشون فى أوهامٍ طائشةٍ ، وتصوُّرات خاطئة ، لا أَملَ لهم فى المُستقبل ، ولا رجاء لهم فى الحياة .

وهم لا يكلِّفون أنفسهم مشقةَ البحث فى مصيرهم بعد

---

(١) سورة المؤمنون ١١٥ .

(٢) سورة الرعد ٥ .

الموت ، ويحجُبهم الجهلُ والغفلةُ عن التهيُّؤ والاستعدادِ لمواجهة المُستقبَل الأخير . . كما يقول الله تعالى :

« إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُون ويأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ والنَّارُ مَثْوًى لهم [1] » .

ولَا زالت الضلالاتُ القديمةُ تتردَّد على ألسنةِ الجاحدِين فى هذا الزمان ، فهم يستعْجِلُون القيامةَ ويقولُون : لماذا لمْ تأْتِ حتّى الآنَ ؟ ومتى تكون ؟

وقد تردَّد هذا القول على ألسنة الكافرين القدماء ، وقد ردَّ عليهم الله سبحانه بقوله :

« يستعجِلُ بها الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِهَا ، والَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحَقُّ ، أَلَا إنَّ الَّذِينَ يُمَارُون فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ [2] » .

إن للساعةِ موعِدَها الذى لا يعلمُه إلَّا الله ، ولا يُؤثِّرُ فيه شكُّ الجاهلين ، أو عجلةُ المكذبين .

---

(١) سورة محمد آية (١٢) .

(٢) سورة الشورى آية (١٨) .

« . . وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ، يَوْم يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّون إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا قَلِيلًا ! » .

• • •

وبعدُ . . فما أثر الإيمانِ بالآخرةِ فى نفس المُسلم ، وفى سُلوكه فى الحياة ؟

إنَّ هذه العقيدةَ لا تجعلُ الدنيا هى الميدان الوحيدُ فى نظرِ الإنسان فهى مرحلةٌ من مراحل الحياةِ الإنسانيّة ، ولكنها ليست كلَّ شىء .

فالجزاءُ على العملِ ، وثمرة السعى فى الحياة ، ليست فى الدنيا ، ولكنها فى الآخرة .

ومن هنا يكونُ المؤمنُ بالآخرةِ أصبر على العمل ، وأقدرَ على الكفاح .

ومن هنا يعملُ المؤمن مُخلِصًا ، وهو يبتغى جزاءه من الله ، لا لِشهوةٍ ولا جاهٍ .

ومن هنا لا يضيقُ بحياته إن أُحِيطَتْ بالمكارِه ، وامتلأت بالآلام ، فما يفوتُه هنا يجدُه هناك . . !

أما الذى لا يؤمنُ بالآخرة ، فهو ضيِّقُ الأفقِ ، مُعْتِمُ النظر ،

---

(١) سورة الأسراء ٥١ ، ٥٢ .

لا أمل له ولا رجاء ، فليس له إلا شقاء القلب ، وحيرةُ الاتجاه ، وظلامُ اليأس ، وعذاب الآخرة . .

« إنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ : أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ »[1] .

• • •

(١) سورة يونس ٧ — ١٠ .

الأسئلة

(١)

المسلم يعلم أن من أصول الإيمان التى لابدّ من التصديق بها أن هناك حياة أخرى تعقب فناء هذا العالم ، يجد فيها كل إنسان الجزاء العادل على ماقدمه فى دنياه .

(أ) المسلم يؤمن أن اليوم الآخر نتيجة لازمة لقيام هذه الحياة الدنيا . وضح ذلك .

(ب) بم وصف القرآن كلا من الدنيا والآخرة ؟ وإلى أى شىء يجب أن يؤدى بنا ذلك الوصف ؟ ولماذا ؟

(جـ) اذكر من الأدلة ما يدل على قدرة الله فى البعث بعد الموت .

(٢)

لما كان الإنسان لايصل إلى اليقين إلا بدليل حىّ يثبت إيمانه ويدعم عقيدته فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله ـ سبحانه قد بعث أمواتًا بعد موتهم وردهم إلى الحياة .

(أ) ما الدليل الحى الذى يجعل الإنسان يصل إلى اليقين

بالنسبة للبعث كما استشهد الكاتب بالقرآن الكريم في هذا الفصل .

(ب) ما أثر الإيمان بالآخرة في نفس المسلم ؟ وفي سلوكه في الحياة ؟

(جـ) ماذا يجب عليك نحو تلاوة القرآن الكريم وتدبر معانيه ؟ ولماذا ؟

• • •

مصدق بحقائق الآخرة

يُوقِنُ المسلمُ بالآخرة ، ويصَدِّقُ بحقائقها ، وهو لايُقْحِمُ نفسَه فيما ليس له به علم ، ولا يخوض فيما لا يصلُ إلى معرفته ، وهو ليس ماديًّا يكفُرُ بالغيب أو يجحدُ عالَم الروح ، بل يؤمن بما أخبرَ به القرآن الكريم ، وما وردت به السنة المطهرة . .

ولئن كان بعضُ الناس يخلطون الحقَّ بالباطِل ، ويجعلون فى عالم الغيب مُتَّسعًا للأكاذيب والأساطير ، فإنَّ المسلمَ الحقَّ يؤمنُ بحقائق الآخرة التى جاءت بها أدلةُ الشرع ، وينفى ما عدا ذلك من جهالات ، ويجعلُ تصوُّرَه فى ذلك قرآنيًّا صادقًا .

والمسلمُ يعتقدُ أنه حين ينتهى عمْرُ الإنسانِ ، ويحضُرُ أجلُه ، فإنَّ ملائكة من السماء يوكلون بإحضار رُوحه بعد قبْضها ، فالمؤمنُ يتلقَّوْنه بالتكريم والسلام :

«الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ[1] » .

ثم يصعدون بروحِه إلى السماء ، فيقبلُ الله عمَلَه ، ويأْذنُ له بالرحمة والمغفرة . .

---

(١) سورة النحل آية ٣٢ .

ثم يهبطون بروحه إلى الأرض فيُسأل فى قبره عن الإله الذى يعبُده وعن الدين الذى يُؤمن به ، وعن اعتقادِه فى الرسول الذى بُعِثَ إلى أمّتِه ، والمؤمن الحقُّ ينجح فى ذلك الامتحانِ بصدقٍ وثباتٍ ، فقد عاش على العقيدة الصحيحةِ ، والإيمان الواثق ، والاتجاهِ القويم .

وعندئذ ينتهِى العناء ، ويتكشَّف المستقبَلُ للمؤمنِ مشرقًا بَهِيجًا ، فقد ثبت إيمانُه وقُبِلَ عمَلُه ، فيُفتَحُ له بابٌ إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ويُحَاطُ بالبشارة والإيناس .

• • •

وعلى نقيض ذلك يكونُ أمرُ الفاجر الكافر ، إذ يُحاطُ بالفزع والخوف حين موته :

« وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ، وَذُوقُوا عذَابَ الحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[1] .

فإذا قُبِضَت رُوحه ، أُوصِدَتْ أَمَامَها أبوابُ السّماء :

---

(١) سورة الأنفال ٥٠ — ٥١ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوابُ السَّماءِ وَلَا يَدْخُلُون الجَنَّةَ . . »[1] .

وعندما يسأله الملائكةُ فى القبر لايستطيعُ الجواب السديدَ ، لأنه عاش كالسائِمة ، لا يعرفُ ربًّا ، ولا يُدْرِك حقيقةً ، ولا يؤمن بحساب ، وحينئذٍ يبدُو له مستقبلُه الحافلُ بالآلام ويُفتَح له بابٌ إلى النار فيأتيه من حرِّها وسمُومها ، ويُوكَلُ به من يعذِّبهُ فى قبره حتى تقومَ الساعة .

* * *

حتى إذا همَدَتِ الحياةُ على ظهر الأرض ، وأذن الله بخرابِ هذا العالَم ، وحلَّت الساعة التى يجمَعُ الله فيها الأوَّلين والآخرين لحسابٍ عامٍّ ، ومحاكمَة جامِعَة فإنَّ الناس يخرُجون من قبورهم جماعاتٍ جماعاتٍ ، فتزدحمُ بهم الأرض ، وتمتلئُ أقطارُها :

« يخرُجُون من الأَجْـدَاثِ[2] كأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ[3] » .

عندئذ يتذكَّرُ الناسُ أن هذا الوعدُ الذى طالمـا ذكَّرهم به الأنبياءُ ، ونادت به الرسالاتُ :

---

(١) سورة الأعراف آية ٤٠ .

(٢) الأجداث : القبور والمفرد جدث .

(٣) سورة القمر آية ٧ .

« ونُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ » (١) .

وقَدْ وَرَدَ فِى السُّنة أَحاديثُ تصف الأَرضَ التى يُحشَر فوقها الناس ، وهى لاتدلُّ بالقطعِ على مكانٍ معلوم ، ولكنها تذكُر علاماتٍ لذلك الموضع الذى يُحشَرُ فيه الخلق . . ومنها ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال :

« يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامَةِ على أَرضٍ بيضاء عَفْرَاء كقرصة نقىٍّ (٢) ليس فيها مَعْلَم لأَحَدٍ » .

ومعناه أَن أَرض المحشر بيضاء ليست خالصة البياض ، وليس فيها علامةُ حياة يعرفها أَحدُ مَن الناس ، والله هو العليم بما يخلُق ويقدِّر ، وليس علم ذلك مما تصِلُ إليه الأَفهامُ .

* * *

والمسلمُ لا يحاوِلُ تحديدَ المكان والكَيْفِيَّةِ وغيرها من أَحوال

---

(١) سورة يٰس ٥١ — ٥٢ .

(٢) أَى كقرصة من دقيق نقى .

الحشر والحساب والجزاء ، فكلٌ ذلك من عالم الغيبِ الذى لا يجوزُ التهجُّمُ عليه ولا التزيُّدُ على ما وردَ فيه من أخبار صحيحة

فنحن فى الدنيا لنا مقاييسُ خاصة فى الفهم والمعرفَة . .

ويوم القيامة تتبدّلُ مقاييسُنَا ، وتتسع طُرقُنا فى العلم - والإدراك ، بعد أن كنا محكُومين بالحَواسِّ لا نعلمُ شيئًا إلا عن طريقِها ، أما فى الآخرة فسيتكشَّفُ لنا من عالِم الغيبِ ما لم نكن نقدِر فى الدنيا على معرفته .

« لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ » (١) .

فلا يجوزُ لنا أن نُخْضِع عالَم الغيب لحواسِّنا ، ونحاولَ أن نبحثَه بطرقنا الحسيَّة الضئيلة ، بل علينا أن نؤمِنَ به ، ونعتقد أنه حق ، ونتصوَّره بالصورة التى أخبرَ بها الدين فحسب .

* * *

وبعد الحشر يُحاسَبُ الناس وتُوزَنُ أعمالُهم .

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » (٢) .

---

(١) سورة ق ٢٢ .

(٢) سورة الزلزلة ٨٧ .

والمقصودُ بالوزن الترجيحُ بين سعى الإنسان فى الخير ، وسعيه فى الشر ، فإن كانت رغبته فى الخير صادقة وسعيه إليه حثيثًا ، فهو فائزٌ سعيد .

وإن كانت حياته صفحةً مُظلِمة ، أو ليس فيها وَمَضاتٌ خاطفة من الضياء فهذا دليل على أن اتجاهه فى الحياة كان ضالًا ، وسعيه فيها كان فاسدًا فهو خاسِر بائس .

وهذا ما يقصِدُ إليه القرآن بقوله :

«فَمنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّم خَالِدُون . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ [١] النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [٢] » [٣] .

وبعد الحساب يمرُّ الناس بالصراط فى طريقهم إلى مصائِرهم .. فمنْ عبَرَهُ خَلُص إلى الجنَّة ، وهو الذى رشحته أعمالُه لها ، ومن لم يستَطِعْ عبورَه هوى إلى النار ، وهو الذى استحقَّ العذابَ بما قدّمه فى دنياه .

• • •

(١) تلفح وجوههم النار : تصيبهم بحرها .

(٢) كالحون : عابسون فى غم .

(٣) سورة المؤمنون ١٠٢ ـ ١٠٤

إن مِنْ صفاتِ المؤمنين أنهم لا يجحدُون ما وعدهم الله به فى الآخرة ولا يشكُّون فيه . فحقائقُ الآخرة لا تنافى العقلَ ، ولا تصعُبُ على قدرة الله القاهرة :

« كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » .

والمؤمنونَ كما وصفهم الله سبحانه :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [1] » .

ولا يناقض ذلك الإيمانُ حقائقَ العلم ، فهو لايدخلُ فى مجاله الحسى ، وإنما يعودُ إلى أمر الإيمان بالغيب الذى يميِّز عقيدَة المسلم .

* * *

وقد تضمن القرآنُ الكريم مشاهد حَية ، وصوراً واضحة لما سيكون فى الجنة من ألوان النعيم ، وما فى النار من صُنُوف العذب الأليم . . والمسلمُ يؤمنُ بأنَّ ما أخبرَ الله به حقٌّ ، ويؤمنُ بصدقِ الوعد والوعيد « وَعْدَ الله لايُخْلِفُ الله وعدَه » .

---

(١) سورة البقرة ٣ — ٥ .

لقد صورت هذه المشاهدُ مشاعرَ أهل الجنة حين يرى بعضُهم بعضا ، فترجع بهم الذكرى إلى الدُّنيا وأحوالِهم فيها ، فيُحِسُّون بفضلِ الله حين وفقهم إلى اتباع الحق ، ووجّههم إلى سبيله المستقيم .

كما صوّرت أيضًا مشاعر الجاحدين المكذبين حين يواجهون العذاب ويفاجأون بأهوالِه ، وحين يَرَوْنَ أُمَمَ الكفر قبلَهم وبعدهم ، ويشاركونهم نفس المصير .

• • •

وقد حَدّد القرآن طبيعة العذاب الذى سيلاقيه المكذبون فى الآخرة وبين أوصافه

يقول الله سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا [1] » .

وجهنم هى مكان العذابُ ، وهى مأْوى الجاحدين :

---

(١) سورة النساء ٥٦ .

« وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ، لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهِمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [1] » .

وللعذاب بالنار طُرق رهيبة لا يُطيقها الجاحدون ، فيألمون ويفزعون :

« هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ الْحَمِيمُ [2] ، يُصْهَرُ بِهِ [3] مَا فِي بُطُونِهِمْ والجُلُودُ ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ [4] مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ، وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ »[5] .

وما ظنك بقوم طعامهُم نارٌ وجمرٌ وشرابُهم لهبٌ وحريقٌ ، وليس فى الأمر طعامٌ ولا شراب ولكنه لون جديد من ألوان العذاب :

« إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ ، كَغَلْيِ الحَمِيمِ [6] » .

---

(١) سورة الحجر ٤٣ . ٤٤ .

(٢) الحميم الماء الشديد الحرارة .

(٣) يصهر به : يذاب به .

(٤) مقامع : آلات يضربون بها .

(٥) سورة الحج ١٩ — ٢٢ .

(٦) سورة الدخان ٤٣ — ٤٦ .

« ثمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا[1] مِنْ حَمِيمٍ ، ثمَّ إنَّ مَرْجِعَهُم لَإِلَى الجحيمِ[2] » .

* * *

وإذا كان هذا عذابُ الأجسامِ والجلود ، فإنَّ هناك عذابًا آخرَ للنفوس ، عذابُ الحسرة والندمِ ، حين لا تنفعُ الحسرةُ ، ولايغني الندم ، وهم الذين جمعت بينهم فى الدنيا مبادىء الضلال ، وأصمُّوا آذانهم عن سماع دعوة الحق وأغمضوا أعيُنَهم عن سَنَاهُ[3] .

وحين يَرَوْنَ أنفسهم فى مصيرٍ واحد ، ويتَّضحُ لهم أنهم أجيالٌ خاسرة ، وأنهم حُرِمُوا نِعمةَ الاهتداءِ إلى الحق ، وسلوك الصراط المستقيم ، تشيع فى قلوبهم مرارةُ الحسرة ، ويلدَغُهم ألمُ الخُسران ، ويلعنُ بعضُهم بعضًا .

يقولُ الله سبحانه :

« قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم مِنَ الجنِّ والإنْسِ فِى النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حتَّى إذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلَاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ .

---

(١) (شوبا من حميم) أى خلطاً من حميم .
(٢) سورة الصافات ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) السنا : الضوء .

وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ [1] » .

وهذا الحوار بيْنَ أمم الكفرِ يجسم الحقيقةَ ويلخص عبر التاريخ .

فالآخرُون من الجاحدين يلقُون تبِعَةَ ضلالِهم على الأُولين لأَنهم هم الذين سَنُّوا لهم سُنةَ الكفر وأورثوهم مبادىء الغِواية التى لم يخلُ منها جيلٌ من الأَجيال .

ولكنَّ الأُولين يجيبون بجواب يملأُ قلوبهم حسرة ، فيقولون : لِم تُلقُون علينا التَّبِعَة ، وتسأَلُون الله أن يَزيدَنا من العذاب ، وأنتم تستحقون مثل عذابِنا سواء بسواء ، فليس لكم ميزةٌ تمتازون بها علينا ، فإن كنا ضللنا فأَنتم ضللتم ، ولم تبحثوا بعقولكم عن حقائق الكون ، ولم تفهمُوا سِرَّ الحياة فنحنُ وأَنتم سواء . . فى الذنب وفى العذاب . . !

وهكذا ضاعت أجيالٌ كثيرة اتبعت ما ورثته من ضلال ، واقتدت بالغاوِين الجاحدين ، ولم تبحث عن الحقيقة وراء الأَوهام والأَباطيل .

وحين يأْتِى وفد جديد ليلقى به فى النار ، يقال للذين

(١) سورة الأعراف ٣٨ - ٣٩ .

سبقوا إلى جهنم : « هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُم » فيرد السابقون :
« لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ » فيجيبهم الفوجُ الجديد :
« بَلْ أَنْتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قدَّمْتُوه لَنَا فَبِئْسَ القَرَارُ[1] ».

نعم . . « أنتم قدمتمُوه لنا » فأئمةُ الضلال وزعماء الإلحادِ والفجور حين يستولُون على مصادِر التوجيه فى المجتمع يضعُون مبادىء الباطلِ التى ينقادُ وراءها الجاهلون . .

ويوم القيامةِ يطلُبُ الجاحدون من ربهم أن يزيدَ فى عذاب من دعاهم إلى الضلال ، وأوردَهم هذا المصير :

« قالُوا ربَّنَا مَنْ قدَّم لَنَا هذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فى النَّارِ »[2]

• • •

وبينما الجاحدون فى جَهَنَّمَ يلاقون أنواع العذاب ، وقد امتلأُوا باليأس وأحاط بهم الهوانُ ، يُسْألون عما أدَّى بهم إلى العذاب ، فيعترفون بضلالهم ويُقِرُّون أنهم كذَّبوا واستكبروا ، ولكن هذا الاعتراف لايخفف من عذابهم ولا يُؤدِّى إلى العفو عنهم يسألهم الله سبحانه :

(١) سورة ص ٥٩ .
(٢) سورة ص ٦١ .

« أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [١] » ؟

فيجيبون ويقرون :

« رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ، فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [٢] » .

وعندئذ يذكِّرهم الله - سبحانه - بموقفهم من دينه وأنصاره فى الدنيا وكيف كانوا يؤذون المؤمنين ، ويسخرون منهم ويستهزئون فيقول لهم :

« . . اخسأوا [٣] فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنَا وارْحمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا [٤] حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى ، وَكُنْتُمْ مِنْهُم تَضْحَكُون ، إِنِّى جَزَيْتُهُم اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ [٥] » .

* * *

أما دارُ الثوابِ التى وعدَ الله المؤمنين بها فهى الجنة . .

---

(١) سورة المؤمنون ١٠٥ .

(٢) سورة المؤمنون ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) أبعدو ابعاداً لمكروه .

(٤) سخريا بكسر السين من الهزء .

(٥) سورة المؤمنون ١٠٨ - ١١١ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا[1] » .

وفى الجنة كلُّ مظاهر النعيم ، وكلُّ أنواع المتاع ، الذى لم يذقْ مثله أحد فى الدنيا ، كما ورد فى حديث الرسول - صلوات الله عليه - عن ربه - عز وجل - :

« . . أعددْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ فى الجَنَّةِ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر[2] » .

وقد صور القرآنُ بعض ألوانِ النعيم فى الجنة . . ليكونَ حافِزًا للأبرار على الجهاد فى سبيل الحق والصبر على تكاليفه . .

« إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُون »[3] .

وليس فى الجنَّةَ شىء من المكارِه أو الآلام ، أو الخوف والفزع فأهلها يُحاطُون بالتكريم ، والنعيم وألوانِ المباهج والنِّعم ففيها متاعُ الجسم ، وطمأنينة الرُّوح :

---

(١) سورة الكهف ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة المطففين ٢٢ - ٢٦ .

« . . فوقَاهُم الله شَرَّ ذَلِكَ اليَوم ولقَّاهُم نَضرَةً وسُرُورًا . وجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لايَروْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرا . . »(١) .

وجملةُ القولُ فى ذلك النعيمِ أنه ليس فوقَه نعيمٌ ، وأن هذا التكريم ليس وراءه تكريم ، وما ظنُّكم بِمَنْ يُكَرِّمه ربُّه العظيم . . .

« وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ومُلْكًا كَبِيرًا(٢) » .

« إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا »(٣) .

* * *

وفى الجنة تتلاقى الأَجيالُ التى آمنت بخالِقها ، وأطاعت أمرَه ، وسارت فى طريقه . فيتذاكرون أيامَ الدنيا الماضية التى عاشوا فيها جادِّين مُجاهدين ، يَحُثُّون الخُطَا ويبذُلون الجهود لِينالوا رضوانَ ربِّهم ، ويفوزوا بثوابه .

« وأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ

---

(١) سورة الدهر ١١ — ١٥ .

(٢) سورة الدهر ٢٠ .

(٣) سورة الدهر ٢٢ .

فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ[1] » .

ومِنْ تمام التكريم أن يعرف المؤمنون فى الجنة مصائر الضالّين الذين كانوا يكذبون بالبعث ويصدُّون الناس عن طريق الإيمان .

وقد حكى القرآنُ قصَّةَ مؤمنٍ كان له صاحب يُكذِّبُ بالآخرةِ ويجحَدُ لقاء ربه ، فإذا قامت القيامة ، ودخل المؤمنُ الجنة ، يقول لإخوانه :

« إنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُول : أَئِنَّكَ لِمَنَ الْمُصَدِّقِين ؟ أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرابًا وعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُون ؟ ! » أى : هل تصدق بالجزاء بعد الموت ؟ ثم يقول لهم :

« هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ » أى : تعالوا بنا نسأل عن هـذا الجاحد الضال :

« فاطَّلَعَ فرآهُ فِى سَوَاء الجَحِيمِ » .

عندئذَ يَحْمَدُ المؤمنُ ربَّه أن وفَّقه للإيمان ، وهداهُ بهداه ، وينادى صاحبه :

---

(١) سورة الطور ٢٥ ــ ٢٨ .

« تَاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِين ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ المُحضَرِينَ » أى المعذبين فى جهنم .

ثم يستنكرُ المؤمن آراء صاحبه الضالَّة التى كان يرددها فى الدنيا :

« أَفَمَا نَحْنُ بمَيِّتِينَ إلَّامَوْتَتَنَا الأُولَىوَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ؟[1] ! »

* * *

لقد كان الخلافُ فى الدنيا على أَشُدِّهِ بين المؤمنين والكافرين فى كل عصر ، وربما عَلَا صَوْتُ الكُفر على صوت الإيمان ، فى بعض البلاد ، وبعض الأزمان . .

وحين يعرف العبادُ مصائِرَهم فى الآخرة ويجد كلٌّ فريق جزاءه العادل ، يسأَل المؤمنون الكافرين : هل عايَنُوا وصدَّقوا . . وهل أدركُوا أنهم كانوا على ضلال . . وهل رأَوْا صدقَ وعد الله ؟ أم لا زَالوا جاحدين مكذبين . . فيُجيبون بالتَّصديق حين لا ينفع التصديق :

« وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحابَ النَّـار : أَنْ قَدْ وَجدْنَا ما وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وجدتُمْ مَا وعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا

(١) سورة الصافات ٥١ — ٥٩ .

نَعَمْ . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ : أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونها عِوجًا وهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ[1] » .

* * *

وَيَحْمَدُ المؤمنون ربهم الكريم ، ويذكرون فضله ، وهم مُحاطُون بالنعيم مغمُورون بالفضل والتكريم :

« وَقَالُوا : الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانا اللهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون[2] » .

بكلِّ هذه المشاهد ، وبغيرها فى القرآن الكريم تستيقظ مشاعر المسلم ويحيا وجدانه ، فيطالِعُ سُطُورَ الجزاء ويتصــورُ المستقبل ، ويعملُ لدنياه غير مفتُونٍ ولا مغرورٍ ، ولآخرتِه غير غافل ولا عابِثٍ ، وهذا سرُّ الإيمان . وأثرهُ فى حياةِ الإنسان .

* * *

---

(١) سورة الأعراف ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) سورة الأعراف ٤٣ .

الأسئلة

(١)

يوقن المسلم بالآخرة ، ويصدق بحقائقها ، وهو لا يقحم نفسه فيما ليس له به علم ولا يخوض فيما لا يصل إلى معرفته ، وهو ليس ماديا يكفر بالغيب ، أو يجحد عالم الروح .

(أ) ما مظهر إيقان المسلم بالآخرة ؟ وما أثر ذلك فى حياته ؟

(ب) ما معنى : (لايقحم نفسه فيما ليس له به علم) ؟ مثّل لذلك .

(جـ) أذكر بعضًا مما يجب الإيمان به من أحوال الآخرة .

(٢)

ومن تمام التكريم أن يعرف المؤمنون فى الجنة مصائر الضالين الذين كانوا يكذبون بالبعث ، ويصدُّون الناس عن طريق الإيمان .

(أ) ما التكريم الذى تشير إليه العبارة ؟ لم كان ذلك تكريماً ؟

(ب) ما أثر ذلك بالنسبة لمشاعر المسلم فى الدنيا ؟ ولماذا ؟

(جـ) حقائق العلم لاتناقض الإيمان . اشرح ذلك .

• • •

مؤمن بالقدر

يدركُ المسلم أنه ليس مخلوقًا هَمَلًا[١] ولا متروكًا سدى ، وأن للكون ربًا يصرِّف أحواله ، ويقضى فيه بما يريد ، ويجعل للحياة غاية تصل إليها ومقادير يحيط بها .

« . . مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، ومَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[٢] » . .

* * *

والمسلمُ يؤمنُ بأن اللهَ يعلَم مصائِر العباد ، ويحيط بأحوالهم ، ويدبر أمورهم فلا يقعُ فى الكون شىءٌ إلا بإذنه ، ولا يصيبُ الناسَ نفعٌ ولا ضررٌ إلا بإرادته وقدرته .

وذلك معنى إيمانه بالقضاء والقدر . .

فهو لا يرى الكونَ بحرًا تضطربُ فيه الأمواج ، ولا مُضطَرَعاً لا يحكمه قانون .

---

(١) هملا : سدى .

(٢) سورة التغابن ١١ .

بل إنّ له من ضوابط القدرة الإلٰهية ما يجعل كل شيء فيه حساب ، وما ينظم فيه الأحوال فلا فوضى ولا اضطراب .

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلَقْنَاهُ بِقَدَر [1] » .

« ماَ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ ولَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ [2] » .

* * *

والمسلم يُؤمن أنَّ القدرَ أحاط بمواهبِ العبادِ ومصائِرهم على نحو دقيق ، فالصحّةُ والمرضُ ، والثراءُ والفقرُ ، والنِّعَمُ ، والمصائِبُ ، والأفراحُ والأحزانُ ، ونهايةُ الأجل ، ومكانُ الموت وكلُّ مايتصلُ بحياة الناس مما لايملكون فيه تصرُّفًا ،ولايستطيعون له تحويلا ولا تبديلا ، مما اختصَّ به القدر ، وأحاط به علمًا . .

فلا يُمَكِّنُ أحدًا أن يخرُجَ عما قدَّر الله له فى ذلك ، ولا أن يُبدِّله كما يريد ، بل إن الإرادة الإلٰهية وحدها هى التى تعمل

---

(١) سورة القمر ٤٩ .

(٢) سورة الحديد ٢٢ .

عملها فى الكون ، وِفْقَ علمِ الله وحكمته ، وتقديره لخير العباد . .

• • •

والإيمان بالقدر فى هذا الجانب هو الذى يحمى المسلم من القلق ، ويعصمه من الجزَع والحسرة ، إذا تبدلت به الأحوال بين النُّعْمى والبُؤسَى .

فالمسلمُ يتقبل أحداث الحياة بنفس راضية ، تعلم أن هناك قدرة عُلْيَا لها العلم والأمر ، تختار له وتبغى له حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة :

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُون[1] » .

وهذا اليقينُ بالقدر يَجْلِبُ الطمأنينة إلى النفس فلا تتقلب مشاعرها ولا تلعب بها حوادث الحياة كما يقول سبحانه :

« لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، واللهُ لَايَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[2] » . .

• • •

(١) سورة التوبة ٥١ .

(٢) سورة الحديد ٢٣ .

والمسلمُ يؤمن بأن علاقة القدر بأفعال العباد ، واتجاهاتهم بين الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، يختلف عن علاقتِه بمواهبهم ومصائرهم .

فإن موقف الإنسان من الطاعة والمعصية ليس كموقفه من الأجل والرزق . فالإنسان السَّوِيُّ يشعر أنَّ له إرادة وقدرة فى الاتجاه إلى طريق الطاعة أو إلى طريق المعصية ، ولايجد نفسه مُرْغَمًا [1] على سلوك أىٍّ منهما ، ولكن الموتَ قدر محض ، لا إرادة للإنسان فيه ، ولا قدرة له على دفعه ، وكذلك الرزقُ فى ضِيقه أو سعَته . .

أما المعصيةُ التى يحاسَبُ عليها الإنسان فإنها لا تقعُ منه إلا وهو مستيقظ الإرادة ، بعد عزم وعمد ، فلا يحق له بعد ذلك أن يجادِلَ بالباطل ويزعُمَ أن ذلك قضاءُ قدَرٍ لا اختيار له فيه ولا إرادة . .

وغايةُ الأمر أن عِلْم الله القديم قد أحاط بأعمال العباد ماكان منها وما سيكون . .

---

(١) مرغما : مجبرا .

ولكن هذا العلم لا مدخل له فى اتجاه البشر ، الذى يصدر عن اختيار وحرص . .

• • •

وذلك هو موقفُ القضاء والقدر ، من أفعال العباد ، واتجاههم بين الخير والشر . .

فالمسلمُ الحق يسدِّد عمَلَهُ ، ويحكم خطته فى اتجاهه فى الحياة . .

ويعلمُ أن اللهَ سبحانه قد منح الإنسان إرادة وقدرة ، وترك له الاختيار بين الهدى والضلال وتلك مسئولية الإنسان :

« فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [1] » .

وبين له أسباب النَّجاةِ وأسبابَ الهلاك .

« وَهدَيْنَاهُ النَّجدَيْنِ [2] » . .

وذلك يؤكد أن الإرادة الإنسانية حرة ، ولها أن تتجه كما تشاء ، مادام للحساب يوم ، وما دام كل إنسان سيلقى ثمرة سعيه فى الحياة . .

---

(١) سورة الكهف ٢٩ .

(٢) سورة البلد ١٠ .

ومدارُ الأمر على الاختيار والإيمان ، فهو أساس التوفيق — أو الخذلان .

وعمل الإرادة الإلهية فى موقف الناس من الحياة وسعيهم فيها : أنها تيسر كل إنسان إلى ما يبتغيه ، فمن سار فى الطريق المستقيم انتهى إلى غايته فى الدنيا والآخرة . . .

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى وَصدَّقَ بِالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (١) » .

ومن اختار طريق السوء وصل إلى مُبْتَغَاهُ .

« وأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (٢) » .

فالهدايةُ والضلالُ مرتبطان بأسبابهما من الاتجاه إلى الحق أو إلى الباطل .

وليست هناك طائفةٌ من الناس يُقَدِّرُ الله لها الهداية دون اختيار منها ، وطائفة أخرى يكتُبُ عليها الضلال دون أن تسعى إليه ، كما يظن الجاهلون .

---

(١) سورة الليل ٤ — ٧ .

(٢) سورة الليل ٨ — ١٠ .

وإنما يهدِى الله سبحانه إلى الحق من طلبه ، ويضل عنه من أغمض عينه وأصمَّ أذنَه . . كما قال سبحانه :

« ومَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الفَاسِقِين ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أمر اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْض »[1] .

فعنصرُ الاختيار الإنسانىِّ بارز فى كل مصير ، وعلى أساسهِ تقومُ عدالةُ الجزاء ، وأمانة الحيَاةِ .

وذلك هو معنى قوله تعالى :

« كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ منْ يَشَاءُ ويَهْدِى مَنْ يَشَاءُ »[2] . .

* * *

والمسلم يعلم أن الذين يحاولون أن يثبتُوا أنَّ الإنسانَ مقهورٌ مجبور ، لا إرادةَ له ولا اختيار ، إنما يريدون أن يُسْقِطُوا عن أنفسهِم التكليف ، وأن يطلقوا لشهواتِهم العنان دون تقيـد ولا مبالاة ، متعللين بِالمقَادِير ، ومعتذرين بالمعَاذيرِ .

ولكن ذلك لن يعفيهم من حساب الخبير البصير ، الذى يعلم خائنة الأَعيُنِ وما تُخْفى الصدور .

---

(١) سورة البقرة ٢٦ — ٢٧ .

(٢) سورة المدثر ٣١ .

والمسلمُ الحقُّ لا يُجادلُ بالباطِل ، بل يتخذُ لنفسه سبيلا إلى ربه ، ويحاسبها على عمله وكسْبِه ، ولا يخدعُ نفسه بالأكاذيب فإن الحقيقة لا تخفى .

« بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ »[1]..

وقد كان التعلُّل بالأقدار ، والجَدلُ حولها طابع الكافرين الذين كانوا يحتجُّون بالواقع ويزعمُون أن الله سبحانه رضى منهم بالشرك ولو شاء لحملهم على التوحيد :

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ[2] » .

وهذا جدلٌ عَقِيم ، ومغالطة مفضوحة ، يُهدِر فيها الإنسان إرادتَه ، ويتجاهل عقله ، ويُصِمُّ أذنه عَن نداء الهداية ، وليس وراء ذلك إلا الضياع والشقاء . .

أما المسلمُ الحق ، فهو يؤمن بالقدر حق الإيمان ، بلا جبر ولا جحود ، ويَفْصِلُ بين ما أراده الله له فيفوضه إليه ، وبين ما أرادهُ منه ، فيُحسن العمل فيه ، فالإيمان بالقدرِ ركنٌ متينٌ

---

(١) سورة القيامة ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة النحل ٣٥ .

فى عقيدة المُسلم ، يملأُ نفسه طمأنينة ويُكسِبُه القوة فى مواجهة الحياة ، وصدق رسول الله :

« لا يُؤمِنُ عبدٌ حتى يؤمِنَ بأربعٍ : يشهد أن لا إلَهَ إلّا الله ، وأنّى رسولُ اللهَ ، بَعَثَنى بالحقِّ ، ويؤمِنُ بالمَوْتِ ، ويُؤْمِن بالبعْثِ بعدَ المَوْتِ ، وَيُؤمِنُ بِالقدرِ » .[1]

• • •

(١) أخرجه الترمذى .

الأسئلة

١ - ما معنى الإيمان بالقضاء والقدر ؟ وما أثر الإيمان بالقضاء والقدر ؟

٢ - المسلم يؤمن بأن علاقة القدر بأفعال العباد ، واتجاهاتهم بين الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، يختلف عن علاقته بمواهبهم ومصائرهم .

(أ) وضح ما تشير إليه العبارة السابقة مبينًا الفرق فى علاقة القدر بأفعال العباد ؟

(ب) أمن حق الإنسان أن يقول إن المعصية قضاء وقدر ؟ ولماذا ؟

(جـ) يجب على الإنسان أن يؤمن بما أراده له ، ويفرق بينه وبين ما أراده منه وضح ذلك .

مصدق بالملائكة

يتسعُ نظرُ المسلم فيرى فى الكون مالا يراهُ سِواهُ من الجاحدين الغافلين ، ويؤمنُ بما أخبَرَه به الحق – سبحانه – من عَوَالِم خلقه التى لا تراها العيون . . والإيمانُ بالملائكة أجلى مظْهر لرُوحِيّة المسلم وإيمانِه بالغيبِ ، فترِقُّ مشاعره وتسمُو نفسه إلى آفاق الكمال . . وذلك أصل من أُصولِ العقيدة الإسلامية التى لا يصح الإيمان إلا بها .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وقَالُوا : سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ » (١) .

« وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمن باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلَائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ » (٢)

• • •

والمسلمُ يؤمنُ بأنَّ الملائكةَ خلْقٌ كريمٌ من خلق الله من غير

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة ١٧٧ .

طبيعة الإنسان ومن غيرِ طبيعةِ الجانّ ، فقد خُلِقُوا من نور ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

« خُلِقَت الملائِكةُ من نورٍ وخُلِقَ الجانُّ من مَارِجٍ[1] من نَارٍ[2] »

فهم منْ عالَمٍ غيرِ محسُوسٍ يختلِفُ فى طبيعَتِه عن عالَمِ الشهادة.

وليس فى طبيعة الملائكة الاتجاه إلى المعصية ، بل هم مفطورون على الطاعة الدائمة :

« لَا يعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرُون »[3] .

* * *

وعلاقة الملائكة بالبشرِ ، علاقة لطيفةٌ يُطبعَها الحبُّ والإشفاق وقد عرضَ القرآنُ من ذلك الكثير ، فهم يسألون ربهم المغفرة لأهل الأرض والتجاوز عن سيئاتِهم .

« . . والملائكةُ يسبِّحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمَن فى الأرض . . »[4] كما يبتَغُون الرحمةَ والإكرام للمؤمنين ، ويسألون الله لهم الغفران :

---

(١) مارج : شعله ساقطه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) سورة التحريم ٦ .

(٤) سورة الشورى ٥ .

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ ، رَبَّنَا وأَدْخِلْهُمْ جنَّاتِ عدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ومَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ »[1] .

وهم يتنزلون على المؤمنين فى الدنيا للتأييد والنصرة :

« إِذْ يُوحِى ربُّكَ إلى المَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . »[2] .

كما يتنزّلون على المؤمنين ساعةَ الموت للبُشرى والإيناس . :

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ . . »[3] .

فهذه عاطفةٌ خالصةٌ بريئة من المصلحة منزّهةٌ عن شوائبِ

---

(١) سورة غافر ٧ — ٩ .

(٢) سورة الأنفال ١٢ .

(٣) سورة فصلت ٣٠ ، ٣١ .

المـادة إذ هى علاقة الإيمان والخير والصفاء، تجعل الملائكة قوة خيِّرة فى الكون وجندًا للحق واليقين .

ولِلْمَلَائِكة مُهمَّة عليا ، هى إبلاغُ الوَحْى إلى الرسل .

« . . اللهُ يَصْطَفِى مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا ومِنَ النَّاسِ »[1] .

« يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ منْ عِبادِهِ . أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ »[2] وجبريل عليه السلام هو أمينُ الوحى الذى اصطفاه الله لحملِ الرسالات إلى المُختارين من عباده . .

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ »[3]

وهم الذين يقبضُون أرواح العباد :

« قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »[4] .

ومن الملائكة حفظةٌ موكَّلون ببنى آدم :

---

(١) سورة الحج ٧٥ .

(٢) سورة النحل ٢ .

(٣) سورة الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) سورة السجدة ١١ .

« إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ »[1] .

كما أن منهم مُوَكَّلين بتسجيل أعمالِ الإنسان وأقواله :

« وإنَّ عَلَيْكُمْ لحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَاتَفْعلُونَ ».[2]

وهم بذلك أمناءُ على البشر أجمعين ، فى أطوارِ حياتهم وفى أحوال سلوكهم ، وفى أرواحهم وعقائدهم ، فكيف يجحدهم الجاحدون ، أو يستهزىءُ بهم المستهزئون .

والمسلم الحق لا يتجاوزُ فى إيمانه بالملائكة حدود الدين ، ولا يصنعُ صُنْع السفهاء الذين افترَوْا على الملائكة ، ومنهم من كان يعبُدُهم من دون الله .

لقد كان الكافرون يزعمُون أن الملائكةَ إناثٌ ، وأنهم بناتُ الله ولقد وجّه القرآن إلى تلك الجهالة حملة شديدة قضَت على أوهام الكافرين .

يقول الله سبحانه :

« وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمٰنُ ولَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ »[3] .

---

(١) سورة الطارق ٤ .

(٢) سورة الأنفطار ١ ــ ١٢ .

(٣) سورة الانبياء ٣٦ .

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ ولَهُم البَنُونَ ؟ أم خَلَقْنَا المَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ » [1] .

ولقد كان الكفار يأنفون من البناتِ ، ومع ذلك ينسبون إلى الله البنات . . ! وليس لهم بالأمر علم ولا بصيرة ، بل هو ظن وادعاء ، وجهل وافتراء .

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ، وما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا » [2] .

أما الذين عبدوا الملائكةَ ، فإنَّ الملائكة سيكذِّبونهم يوم القيامة ، ويبرأون منهم :

« ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ ، أَنْتَ ولِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » [3] .

• • •

---

(١) سورة الصافات ١٥٠ .

(٢) سورة النجم ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) سورة سبأ ٤٠ ، ٤١ .

إنَّ المسلم يعلمُ أن الملائكةَ أحبابٌ للبشر يرجون لهم الخير ، ويبغون لهم الهدايةَ ، ويُشْفِقُون عليهم من العِثار والضلال ، وإيمانه بهم يعود عليه بثبات الإيمان ، وحلاوة اليقين ، وعلاقته بهم هى علاقة التأْييد والحب والعون والنصرة ، فتنفسح أمامه الآفاق ، وتتضح الحقائق ، وتسمو الروح ويصح الإيمان .

* * *

الأسئلة

(١)

الإيمان بالملائكة أجلى مظهر لروحية المسلم وإيمانه بالغيب ، فترق مشاعره ، وتسمو نفسه إلى آفاق الكمال ، وذلك أصل من أصول العقيدة الإسلامية التى لايصح الإيمان إلا بها .

(أ) لم كان الإيمان بالملائكة أجلى مظهر لروحية المسلم وإيمانه بالغيب ؟ وما أثر هذا الإيمان فى المسلم ؟

(ب) ما أصول العقيدة الإسلامية ؟

(جـ) من الملائكة ؟ وما علاقتهم بالبشر ؟

(٢)

للملائكة مهام أذكر ما تعرفه منها .

مؤمن بالرسل

يثق المسلمُ بحكمة الله - سبحانه - ويُوقِنُ بعدله ، ويطمئن إلى رحمته ، ويعلم أن الله لم يكن لِيتركَ الناس بلا هداية إلى الحق ، وإقامة للحجة ، وتوجيهٍ إلى الطريق المستقيم .

« وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »[١]

« يا بنِي آدَم : إمَّا يأْتِينَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي ، فَمَنِ اتَّقَى وأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[٢] .

ومنذ عاش الإنسانُ فى هذه الأَرض يكافحُ فى سبيل الحياة ، كان فى سمعه نداءُ السماء يقول : إن لكَ إلٰهًا قادرًا ، أَنشأَكَ فى هذه الأَرضِ ، واستخلفك فيها ، وجعل لك أجلًا معلومًا ، ثم ينقلك إلى دار أُخرى ، ليجزيك على ما قدَّمت ، فلْتُؤمن به ، ولْتخْضَعْ لحُكْمِه ، ولْتَلْتَزِمْ نهجَه ، فإنَّ فى ذلك النجاةَ .

والذين حَمَلُوا هذه الدعوة إلى أسماع البشر ، هم صفوة من

---

(١) سورة فاطر ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف ٣٥ .

خلق الله اصطفاهم ربُّ العالمين ، ليكونوا عبادَه المرسلين فى الأجيال المتتابعة .

• • •

والمسلمُ يؤمن بأن إرسال الرسل نعمة من الله على عباده .

فإنَّ تجارب البشر ، مهما بلغت لايمكن أن تهديهم إلى سواء السبيل ، ولا أن تدلَّهم على المِنْهاج المُستقيم . . لأن النظرةَ البشريّة مهما اتسعت فهى قاصرة ، ومهما عَلِمَتْ فهى جاهلة ؛ تُدرِكُ من الحقيقة طَرَفًا ، ويغيب عنها الآخر .

ومن هنا احتاج بنو آدمَ لهدايةِ الله التى تعصِمُهم من الضلال وترشدهم إلى الحق ، وتوضِّحُ لهم آفاق الحياة . .

« قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا. وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى [1] ».

إن آفاقَ النفس والحياة لايحيط بها إلا الله ، لأنَّه الخالقُ المبدعُ ، والعالِم الخبير .

« أَلا يَعْلَمُ منْ خَلَقَ ؟ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ [2] » .

---

(١) سورة طه ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢) سورة الملك ١٤ .

ومن هنا لا يستطيعُ الإنسانُ أن يسلُكَ وحدَه فى شِعاب الحياة ودُرُوبِها . . بل لابدَّ أن يتعلم كيف يسيرُ . ؟ وكيف يواجهُ الأحداثَ ؟ لابدَّ أن يعلَمَ من أين ؟ وإلى أين ؟ .

وبهذا العِلْم ، وهذه المعرفة يقوم بناءُ الحياة ويتحقَّق نظامُها وتسودُها العدالة ، وتتَّجه إلى السبيلِ القويم .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ [1] » .

فهل تعلَّم البشرُ من الأنبياء . وهل انتفعُوا برسالاتِ السماء؟ .

« يَا حَسْرَةً على العِبادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِن رَسُولٍ إلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ! [2] » .

* * *

وبإرسالِ الرّسل قامت حجّةُ الله على العباد ، واتضحت معالم الحقيقة وتميَّز النَّهجُ لمن يريدُ المسير ، ولم يعُدْ لأحد عذر فى تَنَكُّبِ الطريق ، والتَّرَدِّى إلى الهلاك .

فلقد نادى الرُّسُلُ بالحق ، ودَعَوا إلى صراط الله ، وصبروا

---

(١) سورة الحديد ٢٥ .

(٢) سورة يس ٣٠ .

على الأذى والتكذيب ، ولاقَوْا الأهوالَ فى سبيل هدايةِ البشر ، وإبلاغ الوحى إليهم .

فأىُّ حجة بعد ذلك للجاحدين ، الذين أصَمُّوا آذانَهم ، وأغمُوا أبصارهم وقابلوا دعوة الحق بالتكذيب والاستهزاء .

« رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عزيزًا حَكِيمًا [1] » .

• • •

والمسلمُ يعلم أنه تاريخ الأنبياء تاريخ فريدٌ . وأن أقدارهم فوق كل بطولةٍ وزعامةٍ وعبقرية . .

فمن فجر التاريخ ورسالاتُ الأنبياء تكافحُ الجحودَ ، والكفرانَ ، وتصارعُ البَغْيَ والطغيانَ ، وتحاولُ أن تُثَبِّتَ فى الأرضِ دعائمَ الطُّمَأْنِينَةِ وأسبابَ السلام . .

ولقد وَهَبَ هؤلاء الرجالُ الكرام من صفوة خلق الله أنفسَهم فى سبيل إنقاذِ الإنسانيّة ، وإبْعادِها عن مَهاوِى الهلاك .

لقد كانت تَغْمُرُ قلوبَهم عواطِفُ نبيلةٌ نحو الإنسانيّة ،

---

(١) سورة النساء ١٦٥ .

منزهة عن كل شائبة ، فكانوا يـألَمُون حين يَرَوْنَ الناس يَتَنَكَّبُونَ الطريق المستقيم ، ويَزِيغُون عن سبيل النجاة . فهذا شُعَيْبٌ ينادى قومه :

« . . يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتكُمْ بيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم ، ولا تُفْسِدُوا فى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِها ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ[1] » .

إن هذه الدعوةَ تجمع أسبابَ الحياة القويمة ، وأساسَ عمران الأرض ، ولا منفعةَ لشُعيْب فيها ، ولا غرضَ له من ورائها ولكنَّ قومه يجيبونهُ مُوعِدِين :

« لَنُخْرِجنَّكَ يَا شُعيْب والَّذِينَ آمنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا[2] » .

وهكذا كانت السُّنَّة العامة هى أن يُواجه الأنبياء بالتَّكذِيب والصدِّ ، والاضطهادِ والحرب .

---

(١) سورة الأعراف ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف ٨٨ .

« ولَقَدْ أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فى شِيَعِ الأَوَّلِينَ [١] . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [٢] » .

وكان ذلك الجهادُ والصبر فى سبيل الحق سببًا من الأسباب التى رفعت أقدارَ الأنبياء ، وأعْلَتْ فى ميزان التاريخ مكانَتَهُم .

والعجيبُ أن موقفَ الأممِ جميعًا من أنبيائهم لم يتغير على مر التاريخ .

فكلّ قوم استنكَروا أنْ يكونَ الرسولُ بشرًا ، وكانوا يظنون أنه لا يكونُ إلا مَلَكًا من السماء لا بشرًا من الأرضِ .

« قَالُوا إنْ أنْتُمْ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطانٍ مبين[٣] » .

وذلك ضلالٌ بعيدٌ ، يصدُرُ عن جهل بحقيقة الدِّين ، ومعنى الرسالة .

فلن يستطيعَ إبلاغُ رسالة الله إلى الناس إلا بشرٌ أمثالُهم . .

إذ أنَّ سكانَ الأرض بشرٌ لا ملائكةٌ ، فكان من عدالة الحقِّ ومن سنَّة الوجود أن يكون رسولُهم من جنسهم وطبيعتهم .

---

(١) شيع الأولين : فرق الأولين .

(٢) سورة الحجر ١٠ .

(٣) سورة إبراهيم ١٠ .

« قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا [١] » .

فطبيعةُ الدَّعْوةِ تقضى أن يكونَ الرسولُ بشرًا يمكنه الإقناع والبيان ، وليكونَ لقومه من خُلُقِه وعَمِلِهِ قُدوةٌ حسنةٌ ، ومثلٌ أعلى للسلُوك المستقيم .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ..[٢] »

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » .. [٣] .

ولكنَّ الجاحدين كانوا يكذبون المرسلين ، ويقولون :

« . . لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فإنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [٤] » . .

. . .

بل إن التُّهَمَ التى وُجِّهتْ إلى المرسلين من طوائف الضالين كثيرًا ما تشابهت حتى فى كلماتها وأساليبها . .

فحين بُعِثَ محمدٌ ـ صلوات الله عليه ـ رماه الكافرون بأنّه

---

(١) سورة الأسراء ٩٥ .
(٢) سورة إبراهيم ٤ .
(٣) سورة الأحزاب ٢١ .
(٤) سورة فصلت ١٤ .

ساحر أو مجنون . . وهى نفسها الفرية التى رُمِىَ بها الأنبيـاء قبله . .

كما يقول الله سبحانه :

« كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا ساحِرٌ أَوْ مجْنُونٌ أَتَوَاصوْا بِهِ ؟ بلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (١) » . .

ولقد أيد الله رُسلَه بالمعجزاتِ ، لتَدُلَّ على صدقهم ، وَتُثَبِّتَ دعواهم ، فلِلْمُعْجِزَةِ دلالة ناطقة على صدق الرسول ، وثبوت الرسالة . .

واقتضت الحكمة الإلٰهية أن تكونَ مُعجِزَات الأنبياء متفاوتة تناسب أقوامَهم وتلائِمُ عصورهم ، فموسى ـ عليه السلام ـ تغلَّب على سَحَرةِ فرعون ، وعيسى كان يُبْرِىءُ المرضى ، ويُحيِي الموتى بإذن الله ، وكل نَبِيٍّ كانت له معجزات تقنع قومَه ، وتَجمعهم على الإيمان .

أما محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه فقد كانت معجِزَتُه الخالدةُ هى القرآن الكريم . . معجزةُ العقلِ والعِلم ، لِتُنَاسِبَ تقـدُّمَ البشرية ، واتِّساع آفاقِها ، وبلوغِها مرحلة الرُّشد والنضوج . .

* * *

---

(١) سورة الذاريات ٥٢ ، ٥٣ .

وقد كان فى سلوك الأنبياء مع أقوامهم دليلٌ قاطع على صدق دعواهم وشرف غايتهم ، وتنزُّهم عن الهوى والمنفعة . .

وإلا فما الذى كان يحمِلُهم على عَنَاء الدعوة ، وهذا الحرص الشديد على هدايةِ البَشرِ وهم لا يرجُون لأنفسهم مَغْنَما ، ولا يبتغُون من الناس ثوابا ؟

لقد لاقوا الوعدَ والوعيد بإجابة لم يختَلِفْ معناها على اختلاف الأجيال . . . فقد أعلنوا جميعًا أنهم لا يُرِيدون نفعًا ولا يطلبُون أجرا . . . فلا مكَان للمساومة على المبدأ ولا مخافة للوعيد .

« وَمَا أَسْأَلُكُمْ علَيْه مِنْ أجرٍ ، إنْ أَجْرِىَ إلَّا عَلَى رَبِّ العالَمِيْنَ »[1] .

« ويا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ علَيْهِ مَالًا ، إن أَجْرِىَ إلَّا عَلَى اللهِ »[2] .

وقد وقفوا جميعا موقف البُطُولة والتضحية ، ولم يَصُدَّهم عن الدعوة شدة الأذى والحرب :

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وقدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبرنَّ

---

(١) سورة الشعراء ١٠٩ .

(٢) سورة هود ٢٩ .

على ما آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون [١] »

وقد كانت سنَّةُ الله تقضى دائمًا بأن يكون النصرُ للأنبياء ، ورسالات الأنبياء ، مهما بلغت قوة الجاحدين ، ومهما طالت حرب المُبْطلين : .

« إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ويَوْمَ يقُومُ الأَشْهَادُ[٢] » . . « كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ [٣] » . .

« « ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبادِنَا المُرْسَلِينَ . إنَّهُمْ لَهُم المَنْصُورُونَ . وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُون » [٤] .

وهاهوذا التاريخ الطويلُ شهيدُ عَلى صدق الوعد الإلهى ،وتحققه فى كل العصور ، مما يجعله حقيقَّة لا تتبدَّل ، وسنة لا تختلف ، فقد فشل الطُغَاة المكذبون فى أن يُطْفِئُوا نور الله . وعجزُوا عن صد الناس عن صراطه المستقيم . .

---

(١) سورة إبراهيم ١٢ .

(٢) سورة غافر ٥١ .

(٣) سورة المجادلة ٢١ .

(٤) سورة الصافات ١٧٢ ، ١٧٣ .

وذهبوا عن الدنيا أذِلَّاء . ليعيشوا فى الآخرة أشقِيَاء ملعونين . . .

« وأتبعوا فى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيوْم القِيامةِ [١] » .

وأعلى الله راية الحق ، وجعل العِزَّة للمهتدين :

« وقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فأَوْحَى إلَيْهِم رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِم ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ [٢] » . .

إن المسلم يؤمن بالأنبياء جميعاً ويعلم أن ذلك أصل من أصول الإيمان .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبهِ ، والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمنَ بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِه ورُسِلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ [٣]

أما الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض . فهو تعصُّب مقِيتٌ يُفسد العقيدة ، ويُحبِطُ العمل .

---

(١) سورة هود ٦٠ .
(٢) سورة إبراهيم ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة البقرة ٢٨٥ .
(٤) مقيت : مذموم .
(٥) يحبط : يبطل ثوابه .

فالمرسلون أسرة واحدة ، تربطهم قرابةُ العقيدةِ ، وصلةُ الإيمان ، وكلهم دعا إلى عبادةِ الله وتوحيده .

« وَما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إلَّا نوحِي إلَيْه : أَنَّه لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [١] » .

فكيفَ يفرِّق الجاهلون بين المرسلين ، وكلهم دعا إلى الله ، وحمل رسالته ؟ ! إن هذا كفر لايتفق مع دين ، ولا يوصِّل إلى يقين . « إنَّ الذِينَ يَكْفُرون باللهِ ورُسُلِهِ ويُرِيدُونَ أنْ يُفَرِّقُوا بيْنَ اللهِ وُرُسُلِه ، ويقُولُونَ : نُؤْمِنُ بِبَعْض وَنَكْفُرُ بِبعْض ، ويُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بيْن ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمْ الكَافِرُون حَقًّا وأَعْتَدْنَا للكَافِرينَ عذَابًا مُهِينًا [٢] » .

والمسلمُ يؤمن بالأنبياء والمرسلين الذين ذُكِروا فى القرآن بأسمائهم ، وهم خمسةٌ وعشرون رسولا . . .

آدمُ ، ونوحُ ، وإبراهيمُ ، وإسحقُ ، ويعقوبُ ، وداودُ ، وسُليمانُ ، وأيوبُ ، ويوسفُ ، وموسى ، وهارونُ ، وزكريا ويحيى ، وإدريسُ ، وإلياسُ ، وإسماعيلُ ، واليسعُ ، ويونسُ ،

(١) سورة الأنبياء ٢٥ .
(٢) سورة النساء ١٥٠ ، ١٥١ .

ولوطٌ ، وصالحُ ، وهودُ ، وشعيبُ ، وذوالكِفْل ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم صلوات الله وسلامه .

كما يؤمن المسلمُ بأن هناك رسلا آخرين بعثهم الله إلى الناس لم تذكر أسماؤهم فى القرآن ، كما يقول الله سبحانه :

« ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِك مِنْهُمْ من قصَصْنَا علَيْكَ وَمِنْهُمْ منْ لَم نَقْصُصْ عَلَيْكَ [1] » .

وهكذا يجمع المسلم ولا يفرق ، ويبرىء إيمانه من العصبية والجحود . . .

* * *

ولقد أنزل الله على رسله كتبا سماوية تحوى حقائق الدين وتجمع أحكام الشرائع .

وقد أخبرنا القرآن بأربعة كتب سابقة أُنزلَت على أربعةٍ من المرسَلين .

التوراة : على موسى . .

والإنجيل : على عيسى . .

والزبور : على داود . .

---

(١) سورة غافر ٧٨ .

والصحف : على إبراهيم . . . .

« إنَّا أنزَلْنَا التَّوْرَاة فِيها هُدًى وَنورُ . . . » [١] .

« وقَفينَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابنِ مريم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاة وآتَيْنَاهُ الإنْجيل فِيه هُدًى ونُورٌ . . [٢] » .

« وآتَيْنَا داوُدَ زَبُورًا : » [٣] .

« أم لم يُنَبَّأ بما فى صُحُفِ مُوسَى ، وإبْراهِيمَ الَّذِى وفَّى » [٤] .

فتلك كتب أربعة . .

أما القرآن ، فهو آخر كتابٍ من السماء ، وقد جاء مصّدقًا لحقائق الكتب قبله ، ومُبطِلًا للمزاعِم التى أشاعها المُفْتَرُونَ ، ومُبَيِّنًا للحقيقة التى ضلت عنها البشرية فى كثير من العصور .

كما قال الله سبحانه :

« وما أنزَلْنَا علَيْكَ الكِتَاب إلا لِتُبَيِّن لَهُم الَّذى اخْتَلَفُوا فيه ، وهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » [٥] .

---

(١) سواة المائدة ٤٤ .

(٢) سورة المائدة ٤٦ .

(٣) سورة النساء ١٦٣ .

(٤) سورة النجم ٣٦ ، ٣٧ .

(٥) سورة النحل ٦٤

فالقرآن لم ينقُل من الكتب السابقة شيئاً ، كما يدَّعِي المبطلون ، ولكنه يُصَدِّق ما فيها من حق ، ويهدمُ ما أُلصِقَ بها من باطل ، فهو المَرْجُع الصحيح الذى تُؤخَذُ منه الحقائق ، وتُنْفى به الأَباطيلُ ، كما يقول الله سبحانه :

« وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَاب بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِما بَيْن يَدَيْهِ مِنَ الكتابِ وَمُهَيْمناً علَيْهِ ، فَٱحْكُمْ بيْنَهُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَاَ تَتَّبِعْ أَهْواءهُمْ . . »[1] .

والمسلمُ يؤمن بما أنزل الله من كتابٍ ، ويعتقدُ أَنَّ القرآن هو الحجة الباقيةُ ، وهو الكتابُ الخالدُ الذى لم يلحقْه تَحريفٌ ، ولم يلْصَقْ به باطل ، فقد حفظه الله وكفل حفظه إلى آخر الزمان.

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْر وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[2] .

* * *

ويعلم المسلم أن هؤلاء الرسل الكرام صفوة خلق الله . .

وقد ميزَهم الله سبحانه بخصائِصَ عُلْيَا تُعِينُهم على أداء واجبهم ، وحمْل رسالتهم . . . ولكنهم لم يخرجوا عن حدود البشرية ، ولم يتعالوا على واقع الحياة . .

---

(١) سورة المائدة ٤٨ .

(٢) سورة الحجر ٩ .

فالأنبياء معصومون من نزعات السوء وسقطات الشهوة والطمع . . كما أنهم مُتّصفون بكمال الخُلُق ، وسَنَاء العقل ، وقد كانُوا أمثِلة سابِقَةً فى علو الهِمَّة ، وطهارة النفس ، ونَقَاء السريرة .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[1] . .

والمسلم يؤمن بالنبيين جميعًا لا يفرق بين أحد منهم ، كما يؤمن بالرحمة المهداه محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين وآخر المرسلين .

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ[2] » . .

وهداية المسلم إلى الحق ، واستقامتهُ على الطريق تنبعُ من إيمانه بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومتابعته لخُطاه ، وتأسِّيهِ بهديه القويم :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » .

---

(١) سورة الأنعام ٩٠

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩

لقد كانت الدنيا فى حاجةٍ إليه حين اختلّت أوضاعُها ، واضطرب نظامها ، فسادت الأرضُ قوى البَغْى والطغيان ، وتولى قيادة الناس مَنْ لا خَلَاق لهم ولا إيمَان ، فأرسَلَه الله سبحانه لِيُصلِحَ من الحياة ما فَسَد ، ويُقِيْمَ فيها ما اعوجّ ، وليضَعَ فى الأرضِ قواعد السلام ، وأساس الحرية والعدالة :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ » [1] ..

وقد كان من حكمة الله سبحانه أن يبعثَ محمدًا صلوات الله عليه فى جزيرة العرب ، إذ كانت أصلح بيئة تظهر فيها تلك الرسالة الجديدة ثم تَشعُّ منها فى أنحاء الأرض :

« لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَن حَوْلَهَا ».

فلم يكن فيها مَلك ذو سلطان ، ولا دَوْلَةٌ ذاتُ سيادة ، بل كان العرب يعيشون فى حُرِّية تامة ، وفق نظام القبيلة ، وفى هذا النظام ما يكْفُلُ للنبى النُّصْرَة والحماية ، كما كان فى العرب فضائل تقربُهم من الإسلام . .

• • •

(١) سورة الأنبياء ١٠٧

والمسلم يؤمن بأنّ معجزَة محمد - صلوات الله عليه - الخالدة هى القرآنُ الكريم الذى تحدّى به الفصحاء والبلغاء ..

ولا ريب فى أن القرآن كلامُ ربِّ العالمين ، فهو حَقٌ لايلحقُه زيفٌ ولا يأتيه باطل :

« لَا يَأْتِيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه ولَا مِنْ خَلْفِهِ تنْزِيلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ [١] » . .

فألفاظ القرآن ومعانيه فوق قدرة البشر ، بعيدة عن متناول الخلْق جميعًا :

« قُلْ : لِئنِ اجْتَمَعْتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يأْتُوا بِمِثْل هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [٢] » ..

وقد اتهم المشركون رسولَ الله بأنه يؤلّف القرآن ، أو ينقلهُ عن الأعجمين أو الأولين .

ولكن آيات القرآن تنزلت تتحداهم فى قوة ، وتجادِلهم فى صراحة وتطالبهم أن يأْتوا بمثله إنْ كانوا صادقين .

---

(١) سورة فصلت ٤٢

(٢) سورة الإسراء ٨٨

« وإنْ كنتم فى ريبٍ مما نزّلنا على عَبْدنا فأتوا بسورةٍ من مِثْله ، وادعوا شهداءكم من دونِ الله إنْ كنتم صادقين [١] »..

ولم يستطع العربُ رغم التحدى أن يأتوا بمثل القرآن ، أو آية واحدة منه ، وأقرّوا بأنه من عند الله .

« فإنّهُم لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيات اللهِ يجْحدُونَ »[٢]

ولم يجدُوا أمامهم إلا طريقَ العناد والجهالة فى محاربة القرآن ، بعد أن يَئِسُوا أن يأْتُوا بمثْلِه ، وعَلِمُوا أنه مَنَزّلٌ من عند الله .

« وَقَال الّذينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [٣] » . .

• • •

ومحمد صلوات الله عليه رسول إلى الناس كافة . .

« قُلْ ياأَيُّها النَّاسُ إنّى رسُولُ اللهِ إليْكُمْ جَمِيعًا [٤] » ..

---

(١) سورة البقرة ٢٣
(٢) سورة الأنعام ٣٣
(٣) سورة فصلت ٢٦
(٤) سورة الأعراف ١٥٨

وتلك ميزةٌ اختصه الله بها بين الأنبياء .. فقد كان كلُّ نبي يبعث إلى قومه خاصة أما نبيُّنا فقد بُعِث إلى الناس كافّة . كما يقول عن نفسه :

« وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصّةً وبُعِثْتُ إلى النّاس عامة (١) » .

« أى إلى العَالم كلّه .

ولهذا فقد بلّغ الرسولُ - صلوات الله عليهِ دعوتهَ إلى غير العرب فى الشام ، والعراق ، ومصر ، وغيرها ؛ بما كان يُرسله من كتب إلى مُلوك هذه الأقطار . .

ومن بعده حمل خلفاؤُه رايَة الإسلام فى كلِّ مكان . .

فهو رسولُ الإنسانية وقائِدها الهادى إلى آخر الزمان . .

• • •

وهو - صلوات الله عليه - خاتم النبيين .

فليس بعده نُبُوةٌ ولا رسالةٌ ، فرسالتُه قد جمعت أُصول الهداية التى تستجيبُ لحاجة الإنسانية فى كل زمان . فهو قد أكمل البناء وختم الرسالات كما يقول عن نفسه :

---

(١) رواه البخارى

« إنّما مَثَلى وَمثُل الأَنبِياء قَبلى كَمَثَل رَجُلٍ بَنَى بيتاً فأَحْسنَه وأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِع لَبِنَةٍ مِنْ زاوِيةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ويعجبون له ويقولون : هلاَّ وُضِعَت هذه اللَّبِنَةُ ؟ قال : فأَنَا اللَّبِنَةُ ، وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ [١] » . .

والمسلم يُوقن أن رسالة الإسلام تمثل مرحلة الكمال والنضج فى حياة البشرية ، ومهما تطورت الدنيا وتغيرت الأوضاع ، وتقدمت الحضارة فالإسلامُ يستجيبُ لهذا كلهُ ولا يقصِّر عنه ، بل يقدِّم حلا لكل مشكلة ، ودواءً لكل دَاء .

ومحورُ الخلاف بين الإسلام وبين أعدائه فى هذا الزمان أنهم يريدون للإنسانية أن تَنتكِس إلى الجاهلية ، وترتَدَّ إلى الضلال ، بينما يريد الإسلامُ أن يسير بها إلى الأمام ، وأن يرفعهَا إلى أسمى آفاق الكمال . .

« كِتابٌ أَنزَلْنَاهُ إليكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلىالنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِم إلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ [٢] » .

• • •

ولقد كان لمحمد صلوات الله عليه من كرم الخُلُق ، وعظمة

---

(١) رواه الشيخان والترمذى

(٢) سورة إبراهيم ١

النفس ، وطهارة السيِّرة ، ما يكفُلُ تصديقَه ، ويحمِل على اتباعه . .

ولكن الرسالة التى جاء بها ، وما تحمِلهُ من ثورة على الفساد ، وماتدعو إليه من تغيير فى تكوين الفرد ، وأوضاع المجتمع ، جعلت الكافرين يقفون فى وجهه ، ويصدُّون عن سبيله :

« فإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »[١]

فمَا زال يُجاهِدُ ويصْبِرُ حتى جاءه نصر الله . .

« إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا »[٢] .

* * *

إنَّ المُسْلِمَ الصادِقَ يملأُ قلبه بحب رسوله ـ صلوات الله عليه ـ ويتخذه مثلا أعلى ، وأسْوةً حسنة يقتدى بأخلاقِهِ ، ويتابع سنته ، ويحيط بسيرته ، فهو الرحمةُ المهداة ، والحُجَّة البالغة ، والمثلُ الكامل للإنسانية فى أرفع درجاتها وأكمل معانيها . .

والمسلمُ لا يعدِل برسوله العظيم أحدًا ، ولاَ يقيس به غيره

---

(١) سورة الأنعام ٣٣

(٢) سورة النصر

من المصلحين أو العباقرة ، ففيه كمالُ البشر ، وهداية السماء .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ » .

وتلك حقيقةُ الحُبِّ الصحيح التى تُوَرِّثُ الاقتداء والاهتِدَاء ، وتسَدِّدُ خُطَا المُسلم على هُدَى السماء .

• • •

الأسئلة

(١)

منذ عاش الإنسان فى هذه الأرض ، يكافح فى سبيل الحياة كان فى سمعه نداء السماء يقول :

إن لك إلها قادرًا ، أنشأك فى هذه الأرض ، واستخلفك فيها ، وجعل لك أجلا معلوما ، ثم ينقلك إلى دار أخرى ليجزيك على ماقدمت .

(أ) الإنسان يختلف عن بقية المخلوقات . وضح كما تفهم من العبارة السابقة .

(ب) مَنْ الذى حمل دعوة السماء من الله إلى البشر ؟ وماذا يجب على المسلم نحو هؤلاء ؟

(جـ) أيستطيع الإنسان دون توجيه سماوى أن يسلك شعاب الحياة ؟ ولماذا ؟

(٢)

ولقد أيد الله رسله بالمعجزات ، لتدل على صدقهم ، وتثبت دعواهم فللمعجزة دلالة ناطقة على صدق الرسول ، وثبوت الرسالة .

(أ) ماالمعجزة ، ولم أيدّ الله الرسل بها ؟

(ب) تختلف معجزة محمد صلى الله عليه وسلم عن بقية المعجزات
وضح . واذكر السبب .

(ج) ماذا يجب على المسلم نحو الرسل ونحو الكتب السماوية ؟
ولماذا ؟ وما منزلة القرآن بالنسبة لبقية الكتب ؟

• • •

البابُ الثاني

صلة المسلم بربه

عابد لربه

حين يُؤْمِنُ المُسلم بربِّه فلا بدَّ من صلة بينه وبينه ، تربط المخلوق بخَالقه وتملأ قلبه بالطُّمأنينة واليقين ، فيُحس بأنّه ليس وحده فى هذه الدنيا ، بل إن معه واهب القوة والقدرة ، وقيُّوم (١) السموات والأرض.

« الَّذِينَ آمنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بذِكْرِ اللهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمئِنُّ القُلُوبُ (٢) » .

والمسلم يعبدُ ربه ويتقرب إليه بمنهج دقيق ، لا تطْغَى فيه الدنيا على الآخرة ، ولا يغيبُ فيه عن الدنيا ، وذلك من إعجاز الإسلام ، وصدق نظرته للحياة .

والصلاةُ هى الوسيلة المثلى التى فرضها الإسلام ليَصِلَ المخلوقَ بخالقه خمس مرات فى كل يوم وليلة ، فيشعر برقابته عليه ، ويجدِّد مَعه العهد ويستمدُّ منه العون ، ويؤكِّد له الإنابة والخضوع

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّى فإِنِى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ

---

(١) قيوم : اسم من أسماء الله ومعناه الشديد القيام على الأشياء والحفاظ عليها .

(٢) سورة الرعد ٢٨

الدَّاعِ إذا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »[١] .

وقد بين القرآن أن الصلاة صفة من صفات المؤمنين ، وسِمةٌ لابد منها فى شخصية المسلم.

فالمؤمنون هم : «الَّذينَ يؤمِنُونَ بالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ »[٢] ..

وهم : « الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فى الأَرضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ »[٣] .

وقد أمر اللهُ المؤمنين جميعًا بإقامة الصلاة والحِرْصِ عليها ..

« قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِين آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ »[٤] ..

بل إن القرآن قد حثَّ الرسولَ - صلوات الله عليه - على إقامة الصلاة والصبر عليها ، وإلزام أهله بها .

« أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَى النَّهارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات ذَلكَ ذِكْرَى للَّذاكرينَ »[٥] .

---

(١) سورة البقرة ١٨٦
(٢) سورة البقرة ٣
(٣) سورة الحج ٤١
(٤) سورة إبراهيم ٣١
(٥) سورة هود ١١٤

« وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا » [١] .

فهل يجد المسلم مناصا من إقامة الصلاة أو عذرًا في إضاعتها ؟ ! .

* * *

والمسلم يعلم أن الصلاة ليست مجرد أقوال وأفعال تؤدّى بلا وعى ولا تدبر .

بل إن لها هدفًا لابد أن يدركه المصلى حتى يستفيد من الصلاة ويصل إلى الغاية منها ، وحتى تنتقل إلى عالم الشعور وتصبح منهجا من مناهج التربية .

فالقرآن يُبيِّن أن الصلاةَ التى تؤدى على وجهها الصحيح ، من سلامة الأركان ، ومن خشوع القلب ، ومن التدبّر فيما يناجِي به المصلِّى ربه ، لا بد أن تَصِل بصاحِبها إلى كَرَمِ الخُلُق وطهارة النفس ، فينتهى عن المعصية ويبتعد عن الفساد ، وينشأ فى نفسه وازعٌ يَربِطُه بالحقِّ ، ويبتعدُ به عن الباطل . .

---

(١) سورة طه ١٣٢

يقول الله سبحانه .

« وأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاء والمُنْكَرِ »[١]

• • •

إن الصلاة فى حقيقتها وسيلةٌ من وسائل التربية الإسلامية التى تغرس فى قلب المسلم حقيقة الإيمان ، وتؤسس فيه الشعور الصادق برقابة الله عليه ، وتعوِّده على طاعة أمره ، وامتثال حُكْمِهِ ، والمبادرة إلى فرائضه . .

والمسلمُ يكتسب منها ثباتَ العقيدة وطمأنينة القلب ، والقوة فى مواجهة أحداث الحياة . . .

فالإنسان بطبعه يجزَعُ حين يمسّه البأس ، فينهزم ويغشاه اليَأْسُ ، وتغمره الكآبةُ . . كما أنه بطبعه يتبطّرُ ويفخَرُ إذا مسّه الخير ، وأحاطت به النعماء فيطغى وينْسى حق الضعفاء . .

ولكنَّ المسلم الذى يُقيمُ الصلاة على حقيقتها ، ويتدبّر معانيها ، يكتسب من صلاته سلامة القلب ، وثبات المشاعر ، فلا يتقلب إحساسه مع تقلب الأيام بين الخير والشر . . بل يقابل الشدائد بوجه باسم وقلب مطمئِن ، يعلم أن الله سبحانه

---

(١) سورة العنكبوت ٤٥

سبحانه - هو الذى يغيِّر ويبدِّل ، وأن قدرته تسيِّر الحياة بعلم وحكمة . كما يعرف حقَّ الله والعبادِ عليه حين يأتيه الخيرُ وتغمره النعم ..

« إنَّ الإنْسانَ خُلِقَ هَلُوعًا [١] ، إذا مسَّه الشَّرُ جزوعًا وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا ، إلاَّ المُصَلِّين الذِين هُمْ عَلَى صَلاَتِهِم دَائِمُونَ » [٢] .

إنها وسيلة هامة يستعين بها المسلم فى مواجهة المصاعب ، وعلى الصبر والثبات فى كفاحه فى دنياه . فيستمدّ من ربه العون ، ويستلهم الثقة والطمأنينة . .

« واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ [٣] » .

وهى كذلك تطهِّر المسلمَ من الخطايا والهفوات التى لايتحَرز منها بشر . . فيظل دائمًا طاهر القلب برىء المشاعر حى الضمير . .

---

(١) هلوعا : جزعا

(٢) سورة المعارج ١٩ - ٢٣

(٣) سورة البقرة ٤٥ .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أرأيْتُم لو أنَّ نَهْرًا بباب أحدِكم يَغْتَسِلُ منه كلَّ يوم خَمْسَ مَرات ، هل يَبْقَى من دَرنه شىء ؟ قالوا : لايبقى من درنه شىء : قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحُو الله بها الخطايا [١] » .

فالصلاة سِمةٌ من سمات المسلم ، ومدرسة دائمة لايزال يتعلم منها حقائق الإيمان ويصل بها إلى أعلى درجات اليقين ، فهى ميزان إسلامه وطريق نجاته . .

كما يقول الرسول صلوات الله عليه :

« . . ومَنْ يُحافِظْ عليهنّ - أى الصلوات - عاشَ بخيْرٍ ، وماتَ بخيْرٍ ، وكانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كيوم ولدته أمّهُ [٢] » .

* * *

وفى عصرنا هذا أضاع كثير من المسلمين الصلاة ، وتهاونوا فى إقامتها ؛ تبلُّدًا فى المشاعر ، وخمودًا للعاطفة ، وجهلًا بالدين ، ولا يعلم الكثيرون منهم أن الذى يضيِّع الصلاة ليس بمسلم

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود .

(٢) رواه أبو داود .

فى الحقيقة ، إذ هى الأساس المتين الذى ترتكز عليه كل معانى الإسلام فى نفس المسلم . .

ولذلك بَيَّنَ رسول الله – صلوات الله عليه – أن تركها عمْدًا بابٌ من أبواب الكفر . . فقال :

« إنَّ بَيْن الرَّجل والشِّرْك والكُفْر تركُ الصلاة [1] » .

وقال : « العهدُ الذى بينَنا وبينَهُم الصلاةُ ، فمن تَرَكها فقد كَفَر » [2] . .

كما بين أن الذى يُهْمِلُ الصلاة يجب جِهادُه حتى يؤدِّيهَا . . فقال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حتى يَشْهدُوا أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله ويقيموا الصَّلاة . . [3] » . .

الواضح أنَّ المسلمَ الذى يترك الصلاة يدل على أنه ليس حريصًا على دينه ، ولا مستعِدًّا للقيام بواجبه ، وتحمُّل أعبائه . .

فالصلاة لاتكلِّفَ المسلم إلا لحظاتٍ قليلةً من وقته ، فى فترات متباعدة فى اليوم والليلة . . فإن لم يحرِصْ عليها

---

(١) رواه الخمسة إلا البخارى .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه البخارى .

المسلمُ مع سهولة تكاليفها ، ويُسر القيام بها ، فلن يحرِصَ على ماسِواها من واجبات الإسلام وفرائضه . .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعَاذ حين بعثه إلى اليمن : « يا مُعاذُ إنَّ أهمَّ أمرك عندِي الصلاة » .

وكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول لحكام الأمصار : « إن أهمّ أموركم عندِي الصلاة ، فمن حافظَ عليها وحِفظَها حفِظ دينَه ، ومن ضيَّعها كان لما سواها من عَمله أشدَّ إضاعة » .

فالحفاظُ على الصلاة ورعايتُها مقياس لصدق الإيمانِ يَثْمِرُ ثمرتَه ، ويعمل عَمله ، فى تثبيت العقيدة ، وتوجيه السُّلوك .

والمسلمُ الحق حين يؤدِّيْ الصلاة يُحْسِنُ القيام بها ، والإفادة منها ، يظهر أثرُها فى حياته ، وتعمل عملها فى تهذيب نفسه وتطهير قلبه . .

والعجيبُ أن بعض الناس فى عصرنا ـ يهوِّنون من شأْن الصلاة والعبادة عامّة ، ويزعمون أن لانفع لها فى الحياة ، ولا أثرلها فى تقويم السلوك ، ناظرين فى ذلك إلى الذين يُراءُون فى العبادة فلايرفعون بها رأْسًا ، ولا يُصْلِحونَ عملا . . وليست هذه حجة يقنع بها العقل ، أو يستقيم بها المنطق ، فإنَّ القرآن

قد نهى المصلِّين عن الغفلة عن معانى الصلاة ، وحذَّرهم من الجهل بحقائقها ، ونسيان دروسها حتى لايصيبهم عقاب الغافلين :

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِين هُمْ عنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِين هم يُراءُونَ وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ » [١] .

فليس الانحرافُ عن الحق حجّةً فى تركه ، ولا شذوذُ البعض داعيًا لأن يعمَّ الشذوذ . . وليست أعمال الجاهلين حجة على هذا الدين .

أما المسلمُ الحقُّ ، فإنَّه يعرف طريقَ الرشاد ويتخذ إلى ربه سبيلًا ، ويجعل من الصلاة مِعْراجا يرتقى به إلى آفاق الكمال ، ويتطهر به من الأَرجاس[٢] والأَدناس[٣] . .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

« ومَا مِنْ امرىء مُسلِم تحضُرُه صلاةٌ مكتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وضُوءها وخُشُوعها ، ورُكُوعَها ، إلا كانَتْ كفَّارَةً لما قبلها من الذُّنوبِ ما لم يأْتِ كَبِيرَةً ، وذلك الدَّهر كله [٤] » .

• • •

---

(١) سورة الماعون ٤ ــ ٧

(٢) الارجاس : جمع رجس وهو القذر

(٣) أدناس جمع دنس وهو الوسخ .

(٤) رواه مسلم .

الأسئلة

(١)

المسلم يعبد ربه ، ويتقرب إليه بمنهج دقيق ، لاتطغى فيه الدنيا على الآخرة ، ولا يغيب فيه عن الدنيا ، وذلك عن إعجاز الإسلام وصدق نظرته للحياة .

(أ) ماالمنهج الدقيق الذى رسمه الإسلام فى العبادة للمسلم ؟ وما أثر إتباع هذا المنهج فى حياته ، وفى حياة مجتمعه ؟

(ب) مادلالة هذا المنهج بالنسبة للإسلام ، وإلا أى شىء يجب أن يؤدى بنا ذلك ؟

(جـ) ماالفريضة المثلى التى تصل المخلوق بالخالق ؟ وماذا يجب على المسلم تجاه هذه الفريضة ؟ ولماذا ؟ .

(٢)

أما المسلم الحق فإنه يعرف طريق الرشاد ، ويتخذ إلى ربه سبيلا ، ويجعل من الصلاة معراجا يرتقى به إلى آفاق الكمال ، ويتطهر به من الأرجاس والأدناس .

(أ) وضح معنى كل من (الأرجاس والأدناس) واذكر كيف يتطهر المسلم منهما ؟

(ب) بم يمتاز المسلم الحق ؟ وما مظهر ذلك ؟

(جـ) متى تكون الصلاة معراجا يؤدى إلى آفاق الكمال ؟ ولماذا ؟

• • •

محب لربه يرجو رحمته ويخشى عذابه

« إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلُوبُهُم ، وإذَا تُلِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُم إيمانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [١] » .

* * *

صِلةُ المسلم بربه تقوم على الحب والرجاء والخشية . .

فالمسلمُ تفيضُ نفسه بعاطفة الحب نحو خالقه ، لأنه واهب الحياة ، ومُفيضُ النِّعم ، وصاحبُ الفضْل والإحسانِ ، الذى خَلَقَ فسَوَّى والَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى .

وإذا كان فى طبيعة الإنسان مقابلة الإحسان بمثله ، فكيف لاتمتلىء قلوبُ المؤمنين بحبِّ الله الذى لا تُحصى نعمهُ ، ولاتنفد عَطاياه ؟ . . فإن الحياة بما فيها نِعمةٌ من الله . .

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَ إذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإلَيْهِ تَجْأَرُونَ [٢] » .

* * *

(١) سورة الأنفال ٢

(٢) سورة النحل ٥٣

ومن هنا تنشأ بين المسلم وربه صلة من الحب لاتنقطع . .

ومن هذه الصلة تنمو فى نفس المسلم مشاعرُ كريمة تسمو به إلى آفاق الكمال ، وتُذيقُه ألوانًا من الأَمن والاطمئنان ، والثقة واليقين ، وتدفعه إلى إدامة الطاعة وإحسان العبادة . . حتى يذوقَ حلاوة الإيمان التى يشير إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحبَّ إليه مِمّا سواهما ، وأَن يُحِبَّ المرء لايُحبُّه إلَّا لِلهِ ، وأن يَكْرَهَ أن يعُودَ فى الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أن يُقْذَفَ فِى النَّارِ [١] » .

وحبّ المسلم لربه يملك عليه قلبه ويسيطر على فؤاده فلايترك فى قلبه فراغًا لسواه ، ولا يحب شيئًا قدر حبّه لله ، وذلك دليلُ إيمانه ، وبرهان يقينه ، كما قال الله سبحانه :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشدُّ حُبًّا لِلهِ [٢] » .

ولهذا الحب آثارهُ الملموسة ، ودلائله الواضحة ، فى عمل المسلم وجهاده .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة البقرة ١٦٥ .

فهو يَنْشَطُ للبذل ، ويَخِفّ للتَّضْحِيَةِ ، حينما يكون ذلك في سبيل الله ، وابتغاء رِضَاهُ . . فلا يبخلُ ، ولا يجبنُ إيثارًا لمـال ، أو إشفاقًا على ولدٍ ، أو رغبةً في الحياة .

بل يقدِّمُ نفسه وما يملِك ، ويبذلُ جهدَه وما يستطيع في ، سبيل نُصرة العقيدة ، وحِماية الحق ، والدفاع عن الحُرُمات . .

وذلك دليل صادق على حبِّه وإيثارِه لرضاه . .

فإن أخلَدَ إلى نوازعِ الجُبْن والبخل ، أو استجابَ لمشاعرِ الضعف والتردُّد ، أو آثرَ روابطَ الدنيا على دعوة الله ، فقـد خَمَدتْ فيه حماسة الإيمان ، وهمدت شُعلة اليقين ، وهو حينئذ منحرفٌ عن سبيل ربه ، متعرِّض لسخطِه وعقابه . .

كما يقول سبحانه :

« قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكمْ وَإخْوَانُكمْ وَأَزْواجُكمْ وعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتمُوهَا وَتِجَـارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إلَيْكمْمِنَ اللهِ وَرَسُولهِ وَجِهَادٍ في سَبِيلهِ ، فَتَرَبَّصُوا حتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لَايَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ[1] »

وكما يحب المسلم ربَّه لإحسانِه وفضله ، ورعايته وهداه . .

فإنَّ ربَّه يحبه لإيمانه وإخلاصه ، واستقامته وتقواه . .

---

(١) سورة التوبة ٢٤

« فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه » [١] .

فما أَجلَّ ذلك وأقدسَه ! وما أعظَمه فى النفس التى تسعى إلى الكمال !

ولقد بيّن الله لعبادِه أنه يحبُّ المتقين الصالحين . ذوي الإيمانِ الراسخ والفضائِل العالية ، والخلق الكريم . .

فهو يحبّ أهلَ العدل ، الذين يقومون بالقسط . .

« إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين [٢] » . .

وأهلَ الوفاء والتقوى . .

« بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ [٣] » . .

كما يحب أهل العفو والإحسان . .

« . . وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِين [٤] » . .

ويحب المجاهدين الصامدين الصابرين الذين يثبتُون فى ساحة الكفاح .

---

(١) سورة المائدة ٥٤

(٢) سورة المائدة ٤٢

(٣) سورة آل عمران ٧٦

(٤) سورة آل عمران ١٣٤

« فَمَا وَهَنوا لِمَا أَصَابَهمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفوا - وَمَا اسْتَكَانُوا ، واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ »[١] .

ويحب المتطهرين المترفِّعين عن الدنايا :

« فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المطهِّرِينَ »[٢] .

ومن هنا فإِنَّ المُسلم الصادقَ يتابع سيره إلى الكمالِ ليحظَى بحب الله ، ويفوزَ برضاه . .

وعلى أساس هذا الحب المتينِ يقوم توكُّل المسلم على ربه حق التوكل . .

إن الله - سبحانه -هو صاحب القُدرة القاهرة ، والعلم الواسع ، والغِنَى المطلق . . وهو القادر على النفع والضرر والإعطاء والمنع . .

فكيف لا يتوكَّل عليه المُسلم ، وهو مولاهُ الذى يَهديه ويرعاه . .

« وما لَنَاألاَّ نَتَوكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا »[٣] .

إن التوكل على الله نتيجة طبيعية للإيمان والحب . .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٦

(٢) سورة التوبة ١٠٨

(٣) سورة إبراهيم ١٢

فهو صفة من صفات المؤمنين .

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » [١] .

وحين يتوكل المؤمن على ربه فإنه يستند إلى السبب الأقوى والركن المتين . . يستند إلى ذى الحكمة والرحمة والقوة والتدبير وهوسبحانه لن يضيع من استند إليه . . ولن يخذل من توكل عليه .

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » [٢] .

والتوكُّلَ على الله هو الذى يمنَحُ القلبَ الطمأنينةَ ، والثباتَ فى مواجهة الأحداثِ ، كما ينمى العزيمة ، ويقوى الإرادة ، ويفتحُ منافِذ الأمل وأبواب الرجاء ، وهو قوة إيجابية تدفع إلى الكفاح ، وتسدّ أبواب القلق ، وتَعْصِم من الجزع ، وتقضِى على الحيرة والتردد . . فهو خلق من أخلاق البطولة يحتاج إليه المسلم ، وهو يخوضُ معارِكَ الحياة .

وحين جَبنَ بنو إسرائيل عن دخول الأرضِ المقدّسة مع نبيهم ناداهم رجلان مؤمِنان من أهل اليقين والتوكل : أن امضُوا إلى الجهاد واثقين متوكِّلين فذلك سِرُّ النصر ، وباب الفتح .

---

(١) سورة التغابن ١٣

(٢) سورة الطلاق ٣ .

« قَال رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فإِذَا دَخَلْتُمُوه فإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَىَ اللهِ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِين »[1] .

ولهذا فإنَّ المسلم حين يتوكلُ على ربه ، لا يُهمِل الأخـذَ بالأسبابِ بل يؤدّى واجبه ويحتاطُ لأمره . .

وقد وفَدَ أحدُ الأعراب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترك ناقته خارج المسجد وسأل الرسول : أأعقِلُها وأتوَكَّلُ أو أُطْلِقُها وأتوكَّلُ ؟ فقال له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[2] .

فلا تنافِىَ بين العمل والحرصِ على ما ينفعُ ، وبين سُكُونِ القلب إلى الحق ورجائه ما عند الله . .

* * *

ومع الحبِّ والتوكُّل ، فإنَّ المسلمَ يخشى ربَّه ويخافُ عقابَه . كما يرجو رحمته وثوابه . .

وخشية المسلم لربِّه هى خوفه من الوقوع فيما يُسخِطُه ، وعزمه

---

(١) سورة المائدة ٢٣

(٢) رواه الترمذى

الصادق أن لا يجاوزَ حدوده ولا ينتهك حرماتِه ، فهى شعورٌ ، وعمل ، ونيّة ، وسلُوك . .

وهى بهذا أصلٌ من أصول التربية الإسلاميّة التى تُنْشِىءُ الوازِع الخُلِقِىَّ فى نفس المسلم ، وتعصِمُه من الانحراف والطغيان فالمسلمُ يخشى ربه فى كل مكان ، وفى كل وقت وحال . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اتَّقِ الله حيثما كُنْتَ . . »[١] .

وقد وعدَ الله من يخشاهُ بعظيمِ الأَجْر ، وكريمِ المنزلة ، لأَنَّ الخشيةَ دليل صدق الإيمانِ ، وثبات اليقين ، واستحضارِ القلب لعظمة الرب سبحانه . .

«إنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ »[٢] .

والله سبحانه هو المستَحِقُّ للخشية ، وإذا كان الناس يخالفون القُوَى المُسَيْطِرَةَ فى الأَرض ، ويرهبُون ذوِي البأْسِ والسلطان ، فإنَّ المسلمَ لايخشى إلا الله . لأَن قوَّته فوق كلِّ قوة ، وإرادتَه فوق كلِّ إرادة . . وكلُّ مافى الأَرض فهو تحت قُدرته ، وفى قبضته . .

---

(١) رواه الترمذى

(٢) سورة الملك ١٢

« فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِى ، ولِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون (١) » .

ومن هنا يعيشُ المسلم عزيزًا لا يَذِلّ ، قويًا لا يَضْعُفْ ، يهابُ ربه ويخشاه ، ولا يذِلُّ لأحد سواه . فيصبِحُ قوة فى الوجود لها دورها بين نواميس الكون ، وسُنَنِ الحياة . .

بهذه العاطفةِ الصادقةِ النابعةِ من الفطرة القريبة من الوجدان ، يمتلىء قلب المسلم . . بالحبّ ، والخشية ، والرجاء . .

وهى تحدِّد صلة المسلم بربه وتوجه زمامها .

فلا يبقى فى القلب شىء غيره . .

ولا يتجهُ المسلم إلا إلى طريقه . .

ولا ينحرِفُ إلى غاية سِواه . .

(١) سورة البقرة ١٥٠

الأسئلة

(١)

وحبّ المسلم لربه يملك عليه قلبه ، ويسيطر على فؤاده فلا يترك فى قلبه فراغًا لسواه ،ولايحب شيئًا قدر حبه لله ، وذلك دليل إيمانه ، وبرهان يقينه .

(أ) ما دليل إيمان المسلم بربه ؟ وما مظهر ذلك ؟

(ب) لماذا يجب على الإنسان أن يحب ربه ؟ وما مراد ذلك الحب ؟

(جـ) ما معنى : (فلا يترك فى قلبه فراغًا لسواه) ؟

(٢)

وخشية المسلم لربه هى خوفه من الوقوع فيما يسخطه ، وعزمه الصادق ألا يجاوز حدوده ، ولا ينتهك حرماته ، فهى شعور وعمل ونية وسلوك .

(أ) ما مظهر خشية المسلم لربه ؟

(ب) وضح معنى كل من (شعور — عمل — نية — سلوك) .

(جـ) الخشية أصل من أصول التربية الإسلامية . فلماذا ؟

• • •

ذاكر لربه واقف بأبواب رحمته

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا »[1] .

إن إيمانَ المسلم ، وصدقَ يقينه ، يجعله يذكر ربه في كل وقت ، ويراهُ في كل شيء . . في مشاهدِ الطبيعة ، وفي أحداثِ الحياة . . فيأْنسُ به ، ويثق في قدرته ، ويأْوى إلى ظلال فضله ورحمته .

ومثله الأعلى في ذلك النبيّ الكريم الذي « كَانَ يذكُر الله على كل أحيانه »[2] .

وليست حقيقةُ الذِّكرِ باللسان ، بل لابد أن ينشأَ أولا في الشعور والوِجدان ثم يفيضُ على اللسان ، مناجاة وحمدًا ، وتسبيحًا وتنزيها . فحينئذ يكونُ المسلمُ من الذاكرين حقًّا ، الذين أعدَّ اللهُ لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا .

---

(١) سورة الأحزاب ٤١ .

(٢) رواه مسلم .

والمسلمُ الذى يذكر ربه . . يذكُرُه ربُّه . .

كما يقول الله عز وجل فى حديث قدسى : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بى ، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنى ، فَإِنْ ذَكَرَنى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُه فِى نَفْسِى ، وَإِنْ ذَكَرَنى فى مَلَإٍ ذَكَرْتُه فِى مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ »[1] .

فما أعظم هذا الذى يذكره ربه ويرعاه .

والمسلمُ الذى يذكُر ربّه يناجيه بقلبِه ، ويملأُ فؤادَه بحبِّه ، ويستضىءُ بنوره ، ولهذا فإنَّ الذكر حياةٌ للقلب ونور ، والغفلة عنه موت وظلام . . لأن الذى يغفل عن رَبِّه ينسى حقيقة الوجود ، ويجهل سرّ الحياة .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَثَلُ الذى يَذْكُرُ رَبَّه والذى لَا يَذْكُرُه مَثَلُ الحَىِّ وَالمَيِّتِ »[2] .

وهو تصويرُ صادق لما ينشئه ذكر الله سبحانه فى نفس المسلم من قوة وحياة ، وما يُمِدّه به من زادٍ ، وما يفتَحه أمامه من آفاق الإيمان والعمل .

• • •

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه البخارى .

ولهذا فلا ينبغى للمسلم أن ينسى ربّه أو يغفلَ عنه .

وإلا فماذا يذْكُرُ إن نَسِيَ ربّه ، وبماذا يشتغل إن غَفَل عنه ؟

إنه يعلم أن لاشىء يشغل الإنسان عن ربه إلا الباطل ، واللهو ، والضلال ، والانحراف .

« ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (١) » .

وذكر الله سبحانه سمة المسلم فردًا أو فى جماعة .

فإذا اجتمع قومٌ فغفلُوا عن ذكر ربهم ، وشغلوا بالباطل واللغو ، فإنهم يكتسبون إثمًا ، ويستوجبون عقابًا ، كما يقول صلوات الله وسلامه عليه : « ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لم يَذْكُرُوا اللهَ فيه ، ولم يُصَلُّوا على نبيِّهم إلا كان عليهم تِرَةٌ - أى ذنب - فإن شاء عذّبهم ، وإن شاء غَفرَ لَهم (٢) » . .

وهذا دليلٌ على تأكُّد الذِّكر ، وضرورته لصدق الإيمان ، وتهذيب السلوك .

• • •

---

(١) سورة الكهف ٢٨

(٢) رواه الترمذى .

والدعاء ذكر . .

بل إن الدعاء هو العبادة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« الدعاء هو العبادة [١] » ثم قرأ قوله تعالى :

وقال « ربُّكم : ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين [٢] » [٣] .

فما أعظم أن يقف العبد يسأل ربه ويلجأُ إليه ويتطلع إلى خزائن نعمته . .

إنه يعرف أن الله وحده هو الذى يملك الاستجابة ، ويملك العطاء .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [٤] »

إن الدعاء يقف الإنسان أمام ربه ، ويشعره بصفته به وإحاطته بشأنه ، ولهذا فهو أفضل العبادة والذكر .

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود .
(٢) داخرين : أذلاء منقادين
(٣) سورة غافر ٦٠
(٤) سورة البقرة ١٨٦

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لَيْسَ شيءٌ أكرمَ على الله تعالى من الدُّعاء [١] » .

إنَّ مقاليد الأمور بيد الله وحده ، فلماذا لايُهْرَعُ إليه العباد طالبين راغبين ، وهو – سبحانه – لايَرُدّ أحدًا ، و لايُخيِّب سائلا . .

يقول رسول الله صلوات الله عليه – : « سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فإنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – يحبُّ أن يُسأَلَ ، وأَفْضَلُ العِبادَة انتظارُ الفَرجِ [٢] » .

• • •

والاستغفار فى حقيقته ذكر . .

فالمستغفر قد عرف أن له ربًّا يقبل التوبة ، ويعفو عن السيئات ،فجاء يطلب الصفح ، ويقدّم الإنابة ، ويعاهده على أن لا يعود .

ولهذا فإن ربه يتوب عليه ، ويغفر له ، ويتجاوز عن أخطائه ، كما يقول سبحانه :

---

(١) رواه الترمذى وأحمد والحاكم .

(٢) رواه الترمذى .

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »[١] .

وقد كان رسول الله صلوات الله عليه يعلِّمُ المسلمين كيف يستغفرون ربهم ، وكيف يقفون ببابه خاشعين « فكّان يستغفرُ الله ، ويتوبُ إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[٢] . وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !

إن الله سبحانه يدعو عبادَه أن يسألُوه العفو ، ويطلبوا منه المغفرة .

وتلك غاية الرحمة ، والفضلِ ، والإحسان .

يقول عز وجل فى حديث قدسى :

« . . يَا عِبادِي إِنَّكُمْ تُخطِئُون بالليلِ والنَّهَارِ وأَنَا أغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا ، فاسْتَغْفِرُونِي أغْفِرْ لكُمْ[٣] » .

• • •

(١) سورة آل عمران ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه مسلم .

على هذه الثلاثة تقوم صلة المسلم بربه الكريم .

يذكره بالقول والعمل ، وبالشعور والوجدان ، ويدعوه في كل وقت ، ويفزع إليه إن أحاطت به المكاره وأحدقت به المشكلات .

ويستغفره إن زلَّ أو أخطأ ، فيَحْظَى بالمغفرة ، وينـــالُ الرضوان . . فما أقدسها من صِلَة ، وما أكرمها من علاقة بين عبد ومولاه .

• • •

الأسئلة

(١)

إنَّ إيمان المسلم ، وصدق يقينه ، يجعله يذكر ربه فى كل وقت ، ويراه فى كل شيء ، فى مشاهد الطبيعة وفى أحداث الحياة فيأنس به ، ويثق فى قدرته ، ويأوى إلى ظلال فضله ورحمته .

(أ) ما مظهر صدق اليقين ؟

(ب) كيف يرى الإنسان ربه ؟ وما أثر ذلك ؟

(جـ) ماذا يجب على المسلم أمام مشاهد الطبيعة المختلفة ؟ ولماذا ؟

(٢)

يذكره بالقول والعمل ، وبالشعور والوجدان ، ويدعوه فى كل وقت ويفزع إليه إن أحاطت به المكاره ، وأحدقت به المشكلات

(أ) وضح معنى كل من : (يفزع إليه - أحدقت به المشكلات ؟

(ب) أذكر أنواع الذكر التى أشارت إليها العبارة موضحًا كل نوع منها .

صاحب للقرآن

« . . إنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ »(١) .

• • •

إنَّ المسلمَ يعلم أن كتاب الله - عزّ وجل - هو رُوح الهداية فى هذه الدنيا ، وهو نقطةُ التحول فى تاريخ البشرية ، فلا بدَّ أن يكون وثيقَ الصلة به ، يعيش معه ولا يسأمُ من ترديد النظرِ فيه ، فهو حبل الله المتين ، وصراطه المستقيم .

والقرآنُ كتاب الله الكريم ، الذى أنزله على محمد صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين . .

« كِتابٌ أنزَلْنَاهُ أليكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ »(٢) .

وقد جمع الله فيه من أصول الخير ، ومناهج الهدى ، ما يُصلِحُ الحياة ، ويرسى فى الأرض دعائم الطمأنينة والسلام :

---

(١) سورة فاطر ٢٩ ، ٣٠

(٢) سورة إبراهيم ١ .

« إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »[١].

• • •

والمسلم يعلم أنَّ للقرآنِ مُهِمَّةً يؤدِّيها للفرد والمجتمع ، فهو يُرشِدُ إلى نظام كاملٍ ، ومنهج للحياة فريد .

وهو علاج حقيقي لأمراض الإنسان ومشكلاته ، واستجابة صادقة لنوازعه وحاجاته الأصيلة ، فلا يعلَمُ الإنسان ، ولا يرسُمُ طريقه المستقيم إلا من خلقه وهداه .

« وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »[٢] . .

وهو دستور الإسلام وأساسُه الأول ، الذي يجمعُ أحكامه ويبين عقائِدَهُ ويحدِّد شريعتَه ، ويوجِّه إلى آدابه وفضائله . .

فما أعظمَه من كتاب ! وما أعظم أثره في حياة الفرد والمجتمع على السواء ؟ .

• • •

ولهذا كانت تلاوة القرآن وتدبّر معانيه ، عبادة مفروضة

---

(١) سورة الإسراء ٩ .

(٢) سورة الإسراء ٨٢ .

على كل مسلم بقدر محدود كل صلاة . . حتى لا ينقطع المسلم عن مورد الهداية ، ولا يعزب عن مصدر الإيمان . .

وباب التطوع بعد ذلك مفتوح بلا حد لمن شاء أن يستزيد . .

وقد رغّبت آيات القرآن ، وأحاديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى تلاوة القرآن والاهتداء بهداه . .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القُرآن واستَظْهَرَهُ فأحلَّ حلَالَه ، وحرَّمَ حرامه ، أدخله الله به الجنةَ وشفَّعه فى عشرة من أهلِ بيته كلهم وجَبت له النار »[٢] . .

• • •

وهو يعلم أن إيمانه لا ينضج ، ونفسه لا تزهر ، وروحه لا تضىء إلا إذا صاحَبَ القرآن يتلوهُ ويتفهَّمُهُ . .

فحينئذ تفوحُ منه رائحة الإيمان ، وتتضح آداب القرآن فى قوله وعمله ، وتبدو ثمرات القرآن فى نهجه وسلوكه . .

إنه حينئذ طيب الظاهر والباطن ، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) لا يغرب : لا يبعد .

(٢) رواه الترمذى .

« مثلُ المُؤمِن الذى يقرأُ القرآنَ مَثل الأُترجة[١] رِيحُها طيِّبٌ ، وطعمُها طَيِّبٌ ، ومثلُ المؤمن الذى لا يقرأُ القرآن مثل التَّمْرة ، لا ريح لها ، وطعمُها حُلْو »[٢] . .

وليست تلاوة القرآن مجرد عبادة لا ثمرة لها فى الحياة . .

بل إن توجيه القرآن للمسلم فى شئون الحياة ، وتصويره لحقائق الوجود وبيانِه لحقيقة الصلة بين العباد . . كلُّ ذلك يعود على المسلم بالقوة فى دنياه ، والصواب فى حكمه ، والتوفيق فى سعيه . . فلا يعيشُ على هامشِ الدنيا ، ولا يسيرُ معصوبَ العينين ضالا عن الهُدَى . . بل يحيا مُؤثِّرًا فى الحياة ، مُصْلِحًا فى المجتمع ، لا يعرِف الذِّلَّة ، ولا يأْلف الهوان . . !

ومن هنا كان تعلُّم القرآن فى ذاته ربحًا يفضُل كل ربح مادىّ ، وكسبًا لا يعادله كسْب . فهو علم يهدى إلى العمل ، وتوجيه إلى أقوم طريق .

وقد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن تعلُّم القرآن يعود على المسلم بثمرات تفضل كلَّ عرض من أعراض الدنيا . فقال لأصحابه : « . . فلأَن يغدُوَ أحدُكُم كل يوم إلى المسجد

---

(١) ثمر من جنس الليمون .

(٢) رواه الخمسة .

فيتعلم آيتين من كتابِ الله - عز وجل - خيرٌ له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربعْ ومن أَعْدَادِهِن من الإِبلِ [١] » .

ومن هنا فلا ينبغي للمسلم أن يتهاونَ في صلتِه بالقرآن فينساه أو يهجُرَه ، فالقرآن هو الدستور الذى يجمع حقائق الإسلام فإذا انقطعت صلةُ المسلم به فإنَّ نبْع الإيمان يجفّ في نفسه ، فَتَذْوِى نضارتُه ، ويذهب بهاؤُه . .

ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الذى ليس فى جوفِه شيءٌ مِنَ القرآنِ كالبيت الخَرِبِ » [٢] . .

ونسيان القرآن إثم عظيم ، لا ينبغي أن يقع مسلم فيه ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : عُرِضَت عليَّ ذُنُوب أُمَّتِي فلم أَرَ ذَنْبًا أعظَم مِن سورة من القرآن أو آية أُوتِيهَا رَجُلٌ ثمَّ نَسِيهَا » [٣] . .

فما أعظم شأن القرآن ! وما أجدَره بالعناية والحِفَاظ ؟ .

• • •

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الترمذى
(٣) رواه الترمذى وأبو داود

فكيف يتلو المسلمُ كتابَ ربِّه حقَّ تلاوته ؟

إنه يعلمُ أن غايةَ التلاوة هى اتصالُ القلب بنور القرآن ، ووقوف العقل أمام ما تحويه آياته من حق وهدى ، فهى عبادة تحتاج إلى قلبٍ سليم ، وعقلٍ مستقيم . .

وليست العِبْرة بكثرة التلاوة ، بل إنَّ العِبرة بالتأمُّل والتدبُّر واستجلاء منابع الهداية ، من آيات الكتاب الكريم .

ومن هنا فإنَّ المُسلِم يتلو القرآن ، خاشع القلب ، حاضر اللُّب ، عارفا بقدره ، مُسْتَحْضِراً لجلاله :

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ،وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »(١)

وهو لا يجعلُ القرآن ألحانًا ونغمات لا معنى لها ، ولا حقيقة من ورائها ، بل ينزِّهُهُ عن اللغو واللهو .

إن ذلك اللهوَ إثمٌ عظيم ، ينافى جلالَ القرآن ، ويحجُبُ نورَه . . لأن القلبَ إذا لم يكن مُصغيًا إلى هداية القرآن فلا جدْوى من تلاوته ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الحشر ٢١ .

« اقرءوا القرآنَ ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقُوموا عنه »[١] .

• • •

إنه كتابُ الله ، ودستورُ الحياة ، لايتخذه المسلم مهجوراً ولا يلْهُو بتلاوته ولا يغْفُلُ عن حقائقه ، كيف وقد كانت تَحْنو له القلوب ، وتَعْنُو له الجباه ، إلى حدٍّ أن كان يبكِي عند سماعِه رسول الله !

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علىَّ » قلتُ : أقرأ عليك ، وعليك أُنْزِلَ يا رسول الله ؟ قال : « إنى أشتهِى أن أسمَعَهُ من غيرِى » قال فقرأتُ سورةِ النساء حتى إذا بلغتُ « فكيف إذا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤلَاءِ شَهِيدًا » قال : كُفَّ أو أمسكْ . فرأيت عينيه تذرِفان[٢] .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) تعنوله الجباه : تخضع له .

الأسئلة

(١)

وقد جمع الله فيه من أصول الخير ، ومناهج الهدى ، ما يُصلح الحياة ويرسى فى الأرض دعائم الطمأنينة والسلام .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

(أ) كيف يهدى القرآن للتى هى أقوم ؟

(ب) ماذا يجب على كل مسلم بالنسبة للقرآن ؟

(ج) وضح معنى (يرسى فى الأرض دعائم الطمأنينة والسلام) .

• • •

لاينبغى للمسلم أن يتهاون فى صلته بالقرآن فينساه أو يهجره فالقرآن هو الدستور الذى يجمع حقائق الإسلام ، فإذا انقطعت صلة المسلم به ، فإن نبع الإيمان يجف فى نفسه ، فتذوى نضارته ويذهب بهاؤه .

(أ) كيف يوطد الإنسان صلته بالقرآن ؟

(ب) ما ضرر التهاون فى صلة المسلم بالقرآن ؟

(ج) ما آدات الصلة بالقرآن الكريم ؟

• • •

صائم عن الدنايا

يرتقِي المسلمُ بإنسانيّته إلى ذِروة الكمال ، ويعلم أن الله عز وجل قد ميّزه عن الحيوان ، وجعل فيه استعدادًا للسموّ بروحه والتحرر من أسر الشهوات وعبودية الغرائز .

وهو حين يمتنع بمحضِ إرادته عن تناول الطعام والشراب وإجابة الشهوات يثبت أن الإيمان صانع العجائب ، وأنَّ الإرادةَ هى الخاصة التى ميّز بها الله – سبحانه – الإنسانَ عن غيره وفضَّله بها على كثير ممن خلق .

والمسلمُ يعلم أنَّ الصومَ عبادةٌ أصيلةٌ ، فرضها الله على أهل الأديان السماوية جميعًا ، اختلفت طرائِقُها ، لكن كمال هذه الفريضة ، ووضوح حقيقتها كان فى الإسلام .

« . . . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [١] » .

* * *

---

(١) سورة البقرة ١٨٣ ، ١٨٤ .

وما كان الله ليَشرعَ لعباده ولاأن يفرض عليهم تلك الفريضة إلا لِحكمة بالغة وغاية مثلى ، وليس لمجرد المشقة والحرمان ، وإنما شرع الله الصيام ليصل بالنفس إلى حقيقة التقوى فتسمو عن الدنايا ، وترتفع عن ضرورات البشرية ، وتتعلَّم كيف تُسيطِرُ على النوازِع والغرائزِ ، وكيف تَسْتَعْصِمُ عن نداء الفِتْنَةِ ، وداعية الشهوة .

فليس الهدف من الصيام هو إذلال النفس ، أو القسوة عليها . .

ولكن الغاية منه علاج النفس من أدْوائها ، فتكتسِب إرادةً حازمةً وعزيمةً صادقةً ، لا تتهافتُ على الشهوات ، ولا تتهالكُ على الرغبات واللذائذ ، بل تملك الصبر على الحرمان ، والقوة فى مواجهة الغرائز ، وتترقَّى من ذلك إلى الابتعاد عن الرذائل واجتناب الدنايا .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « . . لَعَلَّكم تَتَّقُونَ » .

فالمسلمُ حين يمتنع طائعًا عن الضرورات التى يحتاج إليها بحكم الغريزة ، فإنه لا ريب يُمسك عن المحرمات ، ويجتنب المنكرات ، وينشأُ فى نفسه الضمير الحىُّ ، والوازع الخُلقِىُّ ، الذى يوجهه إلى الخير ويعصِمُه عن نَزغاتِ السوء . .

والمسلم فى صيامه يثبت قوة نفسه، وعُلوّ قدرها ، واستعدادها للقيام بالواجبات . والاضطلاع بعظائم الأُمور ، كما يثبت قدرته على التغلب على الحاجات والأهواء . واستعصامه عن الدنايا والسيئات .

فحين ينجحُ المسلم فى تجربة الصيام فهو على الكفاح فى سبيل الحق أقدر . .

أما إذا قصّر عنه وضعُف عن تكاليفه فهو فى ميدان الجهاد أجبَنُ وأضعفُ .

وليس على الصائم رقيبٌ إلا الله سبحانه . .

ومن هنا تنمو لديه ملكة مراقبة الله ، والشعور باطلاعه عليه ، فتخفى من نفسه مظاهر الرِّياء ، والتطلع إلى إعجاب الناس ، والرغبة فى حب الثناء .

وذلك بعض ما يتعلّمَه المسلم من عظات الصيام ومعانيه . .

• • •

وقد بيّن الإسلامُ حدود الصيام التى يجب على المسلم أن يلتزمها . .

فإن للصيام جانبًا ظاهرًا وهو : الامتناعُ عن المُفطرات فى

ساعات النهار . . وذلك أمر ميسورٌ يقدر عليه الحيوان ، ولكن المهم فى الصوم جانبه الروحى الذى جعله الإسلام الهدف الحقيقى لهذه الفريضة .

ومن هنا فإن المسلمَ الحقَّ يتخذ من الصيام وسيلة لتطهيرِ نفسه وتزكيتها . .

فإن من يغفُل عن حقيقة الصيام ، ولا يفطِنُ إلى حكمته . لا يعود صيامه عليه بثَمَرَة ، ولا ينال منه إلا التعب . .

وإلى هذا يشيرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلهِ حَاجةٌ فِى أَنْ يدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَه [1] » . .

ومن هنا فلا بدّ للصائم أن يتميَّز فى قوله وعمله ، ويتخذ لنفسه سلوكًا يتفق مع جلال العبادة وقُدسية الإيمان . .

وإلى هذا يوجِّه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله :

« إذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرفُثْ وَلَا يَصْخَبْ ، فإنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أو قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إنِّى صَائِمٌ [2] » . .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

وبذلك يرتقى المسلم ، إلى ذروة الإنسانية التى جعلها الله فى أحسن تقويم ويقى نفسه شر غرائزه ، ويفتح فيها طاقات الخير .

فما أجلَّ معنى الصيام ! وما أقدس حقيقته ! وما أكرمه من سرّ بين العبد ومولاه . !

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« كُلُّ عَملِ ابنِ آدمَ له ، إلا الصومُ ، فإنَّه لى وأنا أَجْزِى به ، يدَعُ شهوَته وطعَامَه من أَجْلِى [1] » .

فهو تجربة حيّة تدل على صدق الإيمان وتحوله إلى قوة قادرة على التوجيه والعمل . .

* * *

ولهذا فإن المسلم الذى يرعى حقيقة الصوم ، ويحسن القيام بواجباته فيه ينال الأجر العظيم وتشمله الرحمة الواسعة .

فقد جعل الله - سبحانه - الصيام بابًا من أبواب الطهر ، وسبيلا من سبل المغفرة التى تعفىّ آثار الخطايا . .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه مسلم .

« مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ (١) » . .

والأمر كله يعود إلى النية الصادقة والعزم القوى ، ومتى خلُصت نية المسلم فإن الله يعينه على سلوك سبيل الخير ، ويُيسّر له مجانبة السيئات ، ومحاربة الأهواء ويقيه نزغات الشيطان .

كما يقول الرسول صلوات الله عليه :

« إذا كانَ أولُ ليلةٍ من شهرِ رمضان صُفدت الشياطينُ ومردَةِ الجنِ ، وغُلِّقت أبوابُ النار فلم يفتح منها بابٌ . وفتحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها بابُ ، وينادِى مُنادٍ : يا باغِيِ الخير أقبِلْ ، ويا بَاغِيَ الشر أقصِرْ ، ولِله عتقاءُ من النـــار وذلك كلُّ ليلة (٢) » .

• • •

وهكذا نرى الصوم فى حقيقته رياضة للنفس ، وارتفاعاً بالإنسانية إلى أُفق كريم ، وجهادًا كبيرًا يطْبع المسلم بطابع القوة ، ويزيد من طاقته فى ميادين الكفاح .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الترمذى .

ومن عجب ألّا يفطن بعض المفتونين فى عصرنا إلى هـذه الحقيقة الجليلة فيحاولون الغَضّ من شأن الصوم ، وإغراء المسلمين بالتفلت من قيوده بحجة الحفاظ على العمل ، وزيادة الإنتاج ! !

إن النفوس التافهة المشغوفة بالشهوات هى التى تحاول الإفلات من الصيام ولا تَصبر على مشقاته .

ونسى هؤلاء أنَّ المسلمين الأَولين الذين فهموا الإسلام حق الفهم ، وعملوا به حق العمل ، كانوا يروْن فى الصيام عبادة إيجابية لا الفريضة فحسب ، بل وصوم التطوع الذى كانوا يحرصون عليه مختارين . . فلا عجبَ أن ظهرت فيهم البُطُولات وحدثت منهم العجائب ، فإن للصيام تربية تقوى الإرادة وتصهر العزيمة ، وتدفع إلى التضحية والفداء .

أما حين نرى فى عصرنا جماهير المسلمين تستثقل تلك الفريضة وتفزع من مشقتها ، وفيهم الشاب القوى ، والصحيح القادر . . ويَجِدُون من يُعذِرهم ويسوِّل لهم ، فإنه لأمْرٌ يبعث الأسى فى النفس ، ويكشف عما أصاب المسلمين فى عصرنا من وَهَنٍ واختلال .

فكيف يُرجَى من هؤلاء خيرٌ فى دينهم أو دنياهم . . ! ؟

بل إن هناك طوائف فى بعض المجتمعات الإسلامية تحرص على تضييع معانى الصيام وإحاطة لياليه بجو من الهزل والفجور ، حتى تضيع معالم العبادة فيه ، وتمحى معانيه من نفوس المسلمين . وهذا لهوٌ ، حقير ، ينبغى أن يتنزه عنه المسلم ، وأنْ يَنْأَى عن مواطنه ، وأن يكونَ مثلُه الأعلى فى رمضان ما كان عليه رسول الله صلوات الله عليه من هدى كريم . .

لقد كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعلَ من ليالِى رمضان وأيامِه موسِمًا للخير ، يفيضُ بأنواعِ الطاعات ، ويُكْثِرُ فيه من العبادات ، ويزيدُ فيه من الإحسان للخلق ، وإشاعة المعروف .

فقد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى رمضان .

وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فيدارسُه القرآن فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة »[1] .

وكان يقوم فى رمضان فيصلى ويتعبد .

---

(١) رواه الشيخان .

وكان يرغب الناس فى ذلك ويقول :

« من قام رمضان إيمانًا واحتِساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه[١]

هذا هو الصيام كما يفهم المسلم الحق . . سبيل من سُبُل التربية ، وباب من أبواب الجهاد ، ونظام حازم يطبع المسلم بطابع المبادرة والطاعة . ومهما قيل فى بيان معانيه وفهم أسراره ، فلا نزال نتبين فيها جديدًا ونبصر حكمة . .

فهو عبادة فذّة كما قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« عَلَيْكَ بالصِّيامِ فإنّه لا مِثْلَ له [٢] » .

• • •

---

(١) رواه الخمسة

(٢) رواه النسائى والحاكم وصححه

الأسئلة

المسلم حين يمتنع طائعًا عن الضرورات التى يحتاج إليها بحكم الغريزة فإنه لا ريب يمسك عن المحرمات ويجتنب المنكرات ، وينشأُ فى نفسه الضمير الحى الذى يوجهه إلى الخير ، ويعصمه عن نزعات السوء .

(ا) تشير العبارة إلى الحكمة من الصوم وضح ذلك

(ب) المسلم حين يصوم يثبت قدرته على التغلب على الحاجات والأهواء . فكيف ذلك ؟

(جـ) للصوم آداب أذكر ما يجب أن يتحلى به الصائم ، ولماذا؟

(د) جزاء الصوم عظيم . وضح واذكر السبب .

• • •

فى بيت الله الحرام

يُوَلِّى المسلمُ وجْهَهُ شطْرَ المسجد الحرام كلَّ يوم خمس مرات وهو يسجد لربّه ويظلّ قلبه أبدا متعلّقًا بهذه القبلة المباركة مشبُوبَ المشاعر نحوها ، فهى رمز العبادة ، وهى موطن النبوة ، وهى أول مسجد فى الأرض جعله الله لعبادته وتوحيده ، ومن هنا يصبح الحج إلى بيت الله الحرام أملا لكل مسلم ، لا يمل من من التطلع إليه ولا تَخْمُدُ حماستُه نحوه ، لما فيه من تأكدٌ الالتفاف حول الهدف واليقين بالغاية الواحدة التى تجمع المسلمين.

« . . وإذْ بَوَّأْنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ أنْ لَاتُشْرِكْ بِى شَيئًا وطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِين والقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عمِيق ، لِيشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسم اللهِ . . [1] » .

• • •

والمسلمُ يعلم أن المسجدَ الحرامَ بمكة هو بيت الله ، الذى أمِرَ إبراهيم ببنائه ليكونَ مثابة للناس ومقصدا .

---

(١) سورة الحج ٢٦ — ٢٨ .

وقد صانه الله وحفظه ، وطهره وكرمه ، ودفع عنه الطغاة والملحدين . وساوى فيه بين العاكفين والبادين ، وأفاض فيه الأمن والطمأنينة على الناس أجمعين .

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . »[1]

* * *

وقد كان العرب فى الجاهلية يعظمون البيت عن تقليد للآباء . .

فلما جاء الإسلام ربط هذا البيت بحقيقته التاريخية ، وفطرته الدينية . وجعله للمسلمين خاصة ، لأنه ميراث أبيهم إبراهيمَ الذى أمره ربه بإقامته ليكون قبلة ومقصدًا للمسلمين.

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »[2] .

* * *

لذلك جعل الله ـ سبحانه ـ من أركانِ الإسلام الحج إلى

(١) سورة آل عمران ٩٥ ـ ٩٦

(٢) سورة البقرة ١٤٤ .

بيت الله الحرام ، وجعل ذلك فريضة لازمة فى العمر مرة على القادرين .

« وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سبيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين [1] » .

واستطاعةُ الحجِّ إنما تكون بالقدرة على مشقات الرحلة ، وامتلاك النفقة الضروريّة فى أيام الحج . . ولا يشترط فيه الثراء العريض ، ولا الصحة الموفورة ، فمن استطاع ذلك فقد وجب عليه الحج إلى بيت الله . .

فما حقيقة الحج . . وماذا يتعلم المسلم من دروسه ويستفيد من تمارينه . . ؟

إنه رحلة رُوحية ، وعبادة فريدة تترك أكرم الآثار فى نفس المسلم ، وتطبعه بطابع التجرُّد لله ، والتزام حكمه والخضوع لشرعه . .

ولهذا كان الحجُّ بهذا المعنى طهارة شاملة ، تمسح الخطايا ، وتكفِّر الذنوب ، وتبيِّض ما اسودَّ من صحائف الإنسان . .

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(١) سورة آل عمران ٩٧ .

« من حجّ لله فلم يَرْفُثْ ولم يفْسُقْ ، رجَع كيومِ ولدته أُمـه[1] » . .

• • •

إن المُسلِم يَتحملُ مشقات الحج ومتاعبه راضياً ، قريرَ العين ، فهو بذلك يطيع ربّه ، ويبادر إلى أمره . .

وفى ذلك تدريب على تحمّل الأعباء ، ومُواجهة الشدائد ، ومدافعة الأخطار . . ولذلك يتعلّمُ المُسلم من الحج معنى الجهاد . .

وقد جعل الإسلامُ الحج جهادًا حقيقيًّا للنساء والضعاف من الرجال ، يعفيهم من جهاد العدو ، إذ هو غاية وسعهم ومنتهى تحملهم . .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« جهادُ الكبيرِ والصغيرِ والضعيفِ والمرأة : الحج والعُمْرة[2] » .

كما قيل له : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟

قال : « نعم ، عليهن جهاد لا قتالَ فيه : الحج والعمرة[3] » .

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود .

(٢) رواه النسائى

(٣) رواه البخارى .

وقالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ، لكن أفضل الجهاد حج مبرور [1] » .

فما أحوج المسلمَ إلى الحج وما فيه من تدريب على الجهاد . .

• • •

ولقد جمع الحجّ بين نفع الدنيا ، وثواب الآخرة . .

فكما أنه يطهِّر المسلمَ من خطاياه ، ويمسح عنه أوزاره ، فإنه كذلك يفتح أمامه آفاقًا للكسب ، ويتيح له التعاون ، والتعارف مع إخوانه المسلمين من شتّى أقطار الأرض . .

ومن هنا يستطيع المسلمون أن يبتغوا منافع لهم وأن ينهضوا باقتصادهم واجتماعهم عن طريق الوحدة الروحية التي يحققها لقاؤهم مع إخوانهم فى موسم الحج . .

وليت الأمةَ الإسلاميّة فى عصرنا تنتفع بتلك النعمةِ فتكتسبُ منها وحدةَ الرأى ووحدة السلوك . .

وقد كان العرب فى الجاهلية يَتَبَايَعُون ويتبادلون فى موسم الحج ، فلما جاء الإسلام كرهوا الاشتغال بالدنيا أثناء تأدية العبادة . . فرفع الله عنهم الحرج بقوله :

---

(١) رواه البخارى

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنَ رَبِّكُمْ [١] » .

ومعنى هذا أن الحج عبادة تمحو الذنب وتمحق الفقر !

كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« تابعُوا بين الحجِّ والعُمرة فإنهما ينفِيان الفقرَ والذنوب كما ينفى الكِير خبثَ الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة [٢] » .

إنه مؤتمرٌ كبير يأتى بغير تكلف يجمع ملايين المسلمين من كافة أنحاء الأرض ، فيهيب بهم أن يوحدوا صفوفهم ويخلصوا غايتهم ، وأن تجتمع كلمتهم على استرداد حقوقهم وحماية حرماتهم ونصرة عقيدتهم والتعاون فى ميادين الحياة . . وكل هذا مما يشمله قوله تعالى :

« لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ . . [٣] » . .

* * *

والمسلم يعلم أن وراء أركان الحج جميعًا قصد العبادة ونية ذكر الله . .

---

(١) سورة البقرة ١٩٨ .

(٢) رواه النسائى والترمذى .

(٣) سورة الحج ٢٨ .

ففى الحج يتعلم الناس حقيقة المساواة ، وينزلون جميعًا على حكم الله ، فيتجردون من ثيابهم التى ألفوها والتى يظهر فيها التفاوت الاجتماعى ، ويلبس كل منهم إزارًا ورداء فى خشوع وإخبات . . فلا مكان للمباهاة ، وهم جميعًا فى حرم الله ، قد لبّوْا دعوته ، وأقبلوا على كعبته ، وأتوه جميعًا خاشعين قائلين كما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

« لبيْكَ اللّهُمّ لبّيْك ، لَبّيْك لا شَرِيكَ لك لبّيْك ، إن الحمدَ والنعمة لك والمُلك ، لا شَرِيكَ لك [1] » . .

والمسلم فى هذه التلبية وهذا النداء الكريم ليس وحده . .

بل إن كل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه حتى الجماد والشجر . .

فما أروع هذا الموقف ! وما أقدسه ! .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« مَامِنْ مُسْلِمٍ يُلَبّى إلّا لبّى مِنْ عَنْ يمينه ، وعَنْ شِماله من حجر أو مَدرٍ ، حتى تنقطعَ الأرضُ مِنْ هَا هُنا وهُنَا » [2] .

---

(١) رواه الخمسة .

(٢) رواه الترمذى .

وحين يطوفون حول الكعبة فليس طوافهم مجرد دوران حول بناء . . بل هو مناجاة لله وصلاة . . وتطلّع ، وتضرُّع ، واستغاثة والتجاء . . لصاحب الفضل ، وواهب الإحسان . .

ولهذا كان الطواف موضعاً من المواضع التي يُستَحَبُّ فيها الذكر والدعاء ؛ وموطناً من مواطن الرحمة والمغفرة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الطوافُ حولَ البيتِ مثل الصلاةِ ، إلّا أنكُم لاتَتَكلّمون فيه ؛ فمن تكلّم فيه فلا يَتَكَلَّمَنَّ إلّا بِخَيْر »[1] . .

وكلُّ مشاعر الحج ومناسكه لايقصد بها إلا ذكر الله ، والتطلع إلى فضله ، واللجوء إلى رحابه ، وليست طقوسًا لامعنى لها ، أو حركات لاتُثْمِرُ في النفس شيئًا .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بالبيتِ وبيْنَ الصَّفَا والمَروةِ وَرَمْي

(١) رواه الترمذى والحاكم .

الجِمَارِ : لإِقَامَةِ ذِكْرِ الله - تعالى [١] » . كما يقول : « خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعاءُ يومِ عَرَفَةَ »[٢] . .

• • •

هذا هو الحج . . كما يفهمُه المسلمُ الحق . . باب من أبواب النفع المبارك فى الدنيا ، وسبيلٌ من سبل الآخرة . .

ورحلةٌ لله مصحوبة برعايته وفضله مشمولةٌ بتوفيقه وإحسانه

فالمُعْرِضُ عن الحجِّ مُعْرِضٌ عن الله ، غير راغبٍ فى ذكره ولا مهتدٍ بهُدَاه .

وهو حينئذ بعيد عن دينِه ، منحرِفٌ عن صراطه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال :

« مَنْ مَلكَ زَادًا ورَاحِلَةً تبلغه إلى بيت الله ولم يحُجّ فَلَا عليه أن يَمُوتَ يهُودِيًّا أو نَصْرَانِيًّا [٣] » .

• • •

---

(١) رواه أبو داود وأحمد والترمذى .

(٢) رواه الترمذى وأحمد .

(٣) رواه الترمذى وأحمد .

الأسئلة

إن المسلم يتحمل مشقات الحج ومتاعبه راضيًا ، قرير العين , فهو بذلك يطيع ربه ، ويبادر إلى أمره .

وفى ذلك تدريب على تحمل الأعباء ، ومواجهة الشدائد ومدافعة الأخطار .

(أ) للمسجد الحرام مكانة عظيمة وضح هذه المكانة .

(ب) لم يتحمل المسلم مشقات الذهاب لتأدية فريضة الحج ؟

(جـ) ما الأهداف التى ترمى إليها فريضة الحج بالنسبة للرجال والنساء ؟

(د) ماذا يقصد بمشاعر الحج ومناسكه ؟

• • •

فى ماله حق معلوم

لاينسى المسلمُ حين يؤدِّى حقَّ ربه أن الله سبحانه قد أمره بأداء حق أخيه الإنسان ، فتلك أيضًا عبادة الله وابتغاء لِرضاه .

فلا بدَّ أن يقومَ بناءُ المجتمع على التكافُلِ والتعاوُن ، حتى لا يكون المــالُ دولة فى أيدى الأغنياء ، بينما يحرم الفقراءُ من ضروريات الحياة . .

فالمــال مال الله ، والناس جميعًا شركاء فيه . . إن لم يكن على سواء فعلى الأقل بما يعين الفقير على أعباء الحياة ، ويشد أزره فى مواجهة دنياه . . .

وليست الزكاةُ إلا مظهرًا لمــا يفيضُ به قلب المسلم من إحساسٍ بالمسئولية الاجتماعية ، وشعورٍ قوىٍّ بالتضامن والارتباط فهى كما قال الرسول صلوات الله عليه :

« صَدَقَةٌ تُؤْخَذُ من أغنيائِهم وتَردّ على فقرائهم » . .

والمسلمُ يفهم لمــاذا يقرِنُ الإسلام دائمًا بين حقِّ الله ، وحق العباد ، فيجمع بين الصلاة والزكاة . .

« وأَقيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ » (١) .

ويجعل ذلك من سمات المؤمنين .

« الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ » (٢) . .

ويجعل الإنفاق نتيجة من نتائج الإيمان :

« آمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ وأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فيه ، فالَّذين آمنُوا منكُم وأنفقُوا لهم أجرٌ كبيرٌ » (٣) .

ولم يترك أمر الإنفاق موكُولا إلى ضمائر الناس ، بل حدّده بالشريعة ، فأوجبَ زكاة المال ، بنسبةٍ معلومة فى كلٍّ موارد الكسب ، من الذهب والفضة ، والتجارةِ والزروع ، والثمار والسوائم من الإبل ، والبقر ، والغنم ، والكنوز التى توجد فى باطن الأرض . وأَنْصِبَةُ (٤) هذه الزكاة تتسم بالعدالة والوسط ،

(١) سورة البقرة ١١٠

(٢) سورة الحج ٤١ .

(٣) سورة الحديد ٧ .

(٤) نصاب الذهب عشرون مثقالا أو عشرون دينارا .

ونصاب الفضة ٢٠٠ درهم أو ٢٧ ريالا أو ٥٤٠ قرشا مصرياً ، ومقدار الزكاة فى الذهب والفضة ٢,٥ ٪ أى ربع العشر . والتجارة يجب الزكاة فى قيمتها . وزكاة الزروع العشر إذا سقيت بدون آلات ، والخمس إذا سقيت بآلات . والإبل والبقر والغنم لا تجب فيها

لاتُجحِف بالفرد ، ولا تصادِرُ نشاطه الضرورى ، ولا تستولى على قُوتِه الذى يحتاجُ إليه ، وفى الوقت نفسه ، ترعى حقَّ الفقير فلا تشترط قدرًا كبيرًا من الثراء . .

كما فرَض زكاة الفطر من صيام رمضان على كلِّ مسلم يجد ما يزيد عن كفايته فى يومه وليلته ، فيتعلَّمُ المسلمُ من دينه كيف يكونُ التضامُنُ ؟ وكيف يَسَعُ الناس بعضهم بعضًا فى مجتمع الإسلام . ؟

• • •

ومن هنا يدرك المسلمُ الأساسَ الذى تقوم عليه فريضةُ الزكاة ، ويعرف ثمراتِها للفرد والمجتمع . . .

فإن الزكاة من جانبِ المُزَكِّى طهرة لمالِه ، وسمو بنفسه ،

=زكاة إلا إذا كانت ترعى غالبًا فى المراعى العامة . ولا زكاة فى = أقل من خمس من الإبل أو أربعين من الغنم أو ثلاثين من البقر . ففى الخمس من الإبل شاه أو أربعين من الغنم أو ثلاثين من البقر . تبيع أى واحد منها أتم سنة ودخل فى الثانية .

والكنوز التى توجد فى الأرض إن كانت جاهلية يجب فيها الخمس ، وإن كانت إسلامية فهى حق الدولة . وزكاة الفطر صاع من الطعام أو قيمته .

وعِلاجٌ له من أدواء الشُّحِّ والبخل ، حتى لايكنز المـال ، ويحبِسه عن نفع المجتمع . . كما يقول الله سبحانه :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا [١] » . .

وهى كذلك سَدٌّ للخَلَّة [٢] ، وكفاية للحاجة ، وإقامة للعدالة ، وتقرير للتكافل بين الناس . .

ولهذا يعلم المسلمُ أن الزكاة حقٌ للفقير ، لافضلٌ من الغنىّ .

إنها فريضةٌ مادّية ومع ذلك يربطُها الإسلام بأصل الإيمان ، ويقرِّر لها قَدَاسة العبادة ، وجلال الشعيرة ويجعلها إنعكاسًا لمـا يعمُر القلب من عقيدة ومبدإ . . فالقرآنُ الكريم يذكُر الزكاة فى أصول الإسلام الأولى ، التى لا يتخلَّى عنها ، ولايقبل جَدلا حولها :

« ومَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ [٣] » .

كما يجعل الكفر بحق الفقير ، تكذيبًا بالدين ، وإنكارًا للبعث :

---

(١) سورة التوبة ١٠٢

(٢) الخله : الحاجة و الفقر .

(٣) سورة البينة ٥

« أرأيتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بالدِّين ؟ فَذَلِكَ الَّذِى يدُعُّ اليَتِيم وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ »(١) .

ويجعل الاستهانَة بحق الفقير سببًا من أسباب الجحيم :

« ما سَلَكَكُمْ فِى سَقَر ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِم الْمِسْكِينَ »(٢) . .

بل يجعلُ القرآن جَحْدَ الزكاة ، وَمَنْعَ حقوق الفقراء ، وجهًا بارزًا للكفر يكفى للتعريف به ، وينوب فى الدلالة عليه :

« وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَايُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَة هُمْ كَافِرُونَ »(٣) .

ولا يذكرُ القرآن ، إقامة الصلاة ، وهى حق الله سبحانه ، إلا ويقرِنُها غالبًا بأداء الزكاة :

« وأقيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٤) » .

« وَالْمُؤمِنُونَ وَالْمُؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف

---

(١) سورة الماعون

(٢) سورة المدثر ٤٢ - ٤٤

(٣) سورة فصلت ٧

(٤) سورة النور ٥٦

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه [١] » . .

وهكذا يَحُل الإسلامُ فريضَة التكافل الاجتماعى محلَّها بين أركانه ويضمن لها الثباتَ والرسوخَ ، ليعلَّمَ المُسلم ارتباط تلك الفريضةِ بحقيقة الإيمان ودلالتها الواضحة على صدق اليقين فيبادر إلى أدائها راضياً .

إنها تجربةٌ صادقة للبذل ، تؤدى إلى ألوان أخرى من التضامن والتعاون .

ولا ينتهى الأمر بالمسلم عند أداء زكاة ماله بحدّها المفروض فإن أمامه بابُ التطوع ، يرغبه فيه الإسلام ، ويحضُّه على المضى فى سبيله . . فالزكاة حدٌ أدنى للتكافُل الاجتماعى يضعُه الإسلام . .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا أَدَّيتَ زكَاةَ مالِكَ فَقَدْ قَضَيْتَ ما عَلَيْكَ [٢] » . .

ولكنَّ القرآن إلى جانب نصِّه على الزكاة المفروضة ، يذْكُر حق الفقير فى مال الغنى على الإجمال ، مما يُبين أن المُهم كفاية الحاجة وسدّ الخلة :

---

(١) سورة التوبة ٧١

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه

« وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١) » .

وهذا الحق غير الزكاة المفروضة وهو حق يعرفه المسلم بحسِّه المرهف ، وقلبه النَّقِيِّ ، وتجاوبه مع الأحداث التى تقع حوله ، وإحساسه بأنَّه لبِنَة فى بناء كبير .

والمسلم يعلم أن الزكاة حل ناجع وكريم لمشكلة الحاجة والضعف والتخلف فى مواجهة الحياة ، إنها موردٌ متجدِّد يشمل كلَّ مصادر العمل والكسب ، يتجه إلى مصب واحد : الفقر والعَوَز والحاجة ، فلا يزال ذلك يعملُ عمله فيمْسَحُ الآلامَ ، ويقرب الفوارق ، ولا يفسح المجال للثروة الفاحشة ، أو الاستعلاء على البائسين ، أو الإزْرَاء بحقوق المساكين . .

وقد شهد بذلك تاريخ المجتمع الإسلامىّ فى كل الأجيال التى أقامت تلك الفريضة إلى عهد قريب . فقد كان المجتمع الإسلامى بِمَنْجَى من البؤس والضَّعَةِ ، وكانت الحياة فيه كريمة على كلِّ فرد ، لا يحفل بصور الشقاء والحاجة التى تهوِى بالإنسان إلى الحضيض ، وتُلْبِسُه ثوب الذلة والهوان .

---

(١) سورة الذاريات ١٩ .

وكانت الزكاةُ تعمل عملها فى التقريب بين الطبقات ، وكفاية المحتاجين .

إنها حَلٌّ طيع ميسور ، يخفف الأحقاد ، ويلطف من حدة الصراع ، ويحقق التآزُرَ بين القادرين والعاجزين ، وعن طريقها نجح المجتمع الإسلاميُّ فى تحقيق السلام بين الطبقات وربطها برباط التكافُل ، مما يحقِّق التوازُنَ ، ويشيع التكافُل فى المجتمع .. ويعالِجُ كثيراً من المشاكل التى تهَدِّدالمجتمع بالاضطراب والاختلال

* * *

إنَّ المسلمَ لايبخلُ عن حقوق العباد ، ولا يعرِّض نفسه للهلكة فهو يعلم أنَّ البخلَ لن يعود عليه بالخير فى دُنيا أو آخِرَة ..

ففى الدنيا تُمْحَقُ ثروات الباخلين ، ويُزايلُها التوفيق والبركة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« مَامِنْ يوْمٍ يُصبِح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقولُ أحدهما : اللَّهُم أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعطِ مُمسِكًا تَلَفًا [1] » .

إن الله يُباركُ فى أموال المنفقين ، ويُخْلِفُ على المتصدقين . .

---

(١) رواه الخمسة .

« وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »[١] .

وفى الآخرة تصبح ثروات المسكين وسيلة من وسائل العذاب الأليم .

كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من آتاهُ الله مالًا فلم يُؤدِّ زكاتَه ، مثل له يوم القيامة شُجاعًا (ثعبانًا) أقرَع ، له زبيبَتان يطوِّقه يوم القيامة ، ثم يأْخذ بلهزمتيه (أى شدقيه) ثم يقول : أنا مَالكُ ، أنا كنْزُك[٢] .

ثم تــلا :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هوُ خَيْرًا لَهُمْ . بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَــوْمَ القِيَامَةِ »[٣] .

فلن يكتسب من يجحد الزكاة إلا البوارَ و الخسران .

* * *

أما الإنفاق والتصدق فهو خيرٌ محض للمنفقين

---

(١) سورة سبأ ٣٩ .
(٢) رواه الخمسة إلا أبا داود .
(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

فالمال نعمة من الله أنعم بها عليهم ، ثم يستقرضهم منها بأجر مضاعف وثواب عظيم .

« إنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ شَكورٌ حَلِيمٌ »[1] .

والمنفقون فى رحمة الله ورعايته :

« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتون الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنونَ »[2] .

والذى ينفق فى سبيل الله لا يضيع عمله هباء .

فإن الله يدّخره له ويجزيه به .

« وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خيرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إلاَّ ابْتِغاءَ وجْهِ اللهِ ، وَمَا تنفِقوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إلَيْكمْ وَأَنْتمْ لا تظْلَمُونَ »[3]

« وآتوا الزَّكَاةَ وأَقْرِضوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفسِكمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا »[4] .

* * *

---

(١) سورة التغابن ١٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٦ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٢ .

(٤) سورة المزمل ٢٠ .

ولقد فرض الإسلامُ على كلِّ مُسلمٍ أن يُشرِبَ قلبه حبَّ الخير ، ونفْع الناسَ بما يستطيعُ ، من مال وجهد أو نية وشعور.

فليس لأحد أن يعيشَ مع الناس يَمنعُ عنهم خيره ، ويبسُط إليهم أذاه .

فإنَّ ذلك ليس من خصال المسلم ، ولا يستقيمُ مع منهجه فى الحياة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ ، فَقَالوا يا نَبِيَّ الله فَمَنْ لم يَجِدْ ؟ قال : يُعِين ذَا الحَاجَةِ المَلْهوف ، قَالوا فإنْ لم يَجِدْ ؟ قال : فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » [1] .

وهكذا يصبح المسلمُ ويمسى ، وهو يُمِدُّ الحياة بنفع ، ويشيع فيها الخير بين الناس ، فهو يعلم أن هذا مقياس الإسلام ، ودليل اليقين ، فليس الإيمان بالتمنى ، بل هو ما وقرَ فى القلبِ وصدَّقَهُ العمل .

---

(١) رواه لشيخان والنسائى

الأسئلة

(١)

الزكاة من جانب المزكى طُهرة لمـاله ، وسمو بنفسه وعلاج له من أدواء الشُّح والبخل حتّى لايكنز المـال ويحبسه عن نفع المجتمع .

(أ) الزكاة يحقِّق التكافل والتعاون فى المجتمع وضح ذلك .

(ب) ما مظهر اهتمام الإسلام بالزكاة ؟ وإلى أى شىء يؤدى ذلك؟

(جـ) تحدث عن أثر الزكاة بالنسبة للمزكِّى .

(٢)

لقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يشرب قلبه حب الخير ، ونفع الناس بما يستطيع من : مال ،أوجهد أو نية وشعور .

(أ) ما الذى فرضه الإسلام على كل مسلم ؟ وما مظهر ذلك فى المـال ؟

(ب) ما الذى أفاده التعبير بقوله (بما يستطيع ؟) وما دلالة ذلك بالنسبة للدين الإسلامى ؟

(جـ) ما المقصود بنفع الناس بالنية والشعور وما أثر ذلك فى المجتمع .

البَابُ الثَالِثُ

صلة المسلم بالناس والحياة

يهدِف الإسلام فى حقيقته إلى صنعِ الفرد المثالىّ الذى يعرف كيف يعامل الخَلْقَ ؟ وكيف يتجه فى الحياة ، وفق مبادئه وأصوله ؟

وهذه الغاية ثمرةٌ لمـا قبلها ، ومن الإيمانِ الصحيحِ والعبادةِ الراشدةِ ، فهما يُثْمِرانِ الخلقَ الكريمَ ، والمعاملةَ السَّمْحَةَ التى تليقُ بالإنسانية المهذبة . .

والذين يُحَاوِلون عزل الإسلام عن الحياة ، أو يفرِّقُون بين العبادة والمعاملة إنما يجهلون دينَهم ، وينحرفون عن صِراطِه .

وليس من شكٍّ أنَّ المجتمعَ الإنسانىَّ لم يشهدْ بشرًا أكرم ولا أقومَ من هؤلاء الذين صنعهم الإيمانُ ، وعمر قلوبَهم اليقينُ .

وبغير ذلك لايعدُو الإنسانُ المتحضِّرُ أن يكونَ حيوانًا مهذَّبًا لا يلبثُ أن يعودَ إلى طبيعته ، ويحنَّ إلى أصله .

وإذا لم يتعلَّمْ المسلمُ من دينه كيف يَرْقَى إلى أسمى الآفاقِ فى المعاملةِ ، وأطهرِ الأخلاق فى مُخَالَطَةِ النَّاسِ فإن إيمانَه لايصحُّ وإسلامه لا يستقيم . ؟

ولننظُرْ كيف صوَّر القرآنُ الكريمُ توازُنَ شخصية المسلم ، واكتمال خصائِصها فى هذه الآية الجامعة التى لاتقتصر على العبادة

ولا تقف عند حد الاعتقاد ، بل تُضيف إليها مكارمَ الأخلاق ، وتضعها فى إطار مَرْمُوق .

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ والمَلَائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ ، أولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ »[1]

ونحن هنا نشيرُ إلى أُصُولِ الأخلاقِ التى تميِّزُ المسلمَ وتحدِّد نظرته إلى الحياة ، وموقِفَه من الناس ، فى إيجازٍ يكتفِى بالإشارة ويبتَعِدُ عن التَّفصيل . .

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ .

صادق فى قوله وعمله

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين »[١] .

من ملامحِ المسلمِ ومعالمِهِ البارزةِ التزامُ الصدق فى قولهِ وعملِهِ . .

فهو خُلُقٌ أصيلٌ من أخلاقهِ يعبِّرُ عن حقيقته ، ويسيرُ إلى أهدافه . .

والصدقُ فى نظر المسلم ليس إلا الحقُّ الذى هو أساسُ الإيمان وعمادُ الوجود ، أما الكذبُ فهو الباطلُ ، الذى لا يقومُ له بناءٌ ولا تَثْبُتُ له قدمٌ .

وما دام المسلمُ قد اختارَ طريق الحق ، فآمنَ بالله وعرف سِرَّ الوجود ، فلا بدَّ أن يتحرَّى الصدقَ فى قوله ، وأنْ يتخذَه منهاجًا فى حياتِه ، لأنَّه يعلم أن الكذب يناقض الإيمان ، وأنه خطرٌ يتهدَّد العقيدة ، ويفسد العمل . .

ومن هنا فإنَّ المسلمَ الحق لايتصفُ بالكذب ، ولا يرضى به طريقًا ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه :

---

(١) سورة التوبة ١١٩ .

« يُطْبَعُ المؤمنُ على الخِلَالِ كلِّها إلا الخيانة والكذب »[١] .

كما أَنَّ التزامَ الكذِب ، والميل إلى الباطل ، يُخْرِجُ صاحبَه من دائرة الإيمان إلى هاوِيةِ النفاق ، وفى ذلك يقول الرسول :

« أَربعٌ من كُنَّ فيه كان منافِقًا خالصًا ومن كان فيه خَصْلَةٌ منها كان فيه خَصْلَةٌ من النفاق حتى يَدَعها : إذا حدَّث كذب . . . »[٢] . .

ولهذا فإنَّ المُسلِمَ يتخذُ من الصدق طريقًا مأْمونًا ينتهى به إلى رضوانِ الله – سبحانه – ويهدِيه إلى حُسن العاقبةِ فى الدنيا والآخرة ، فيُنَمِّى مواهبَ الخير فى نفسِه ، ويطبَعَهُ بِطَابعَ الحق ، فيأْلَفُ مسالِك الخير والاستقامة ، ويُنْبِتُ فى قلبه بذورَ اليقين والمعرفة ، ويسمُو به إلى أرفع الدرجات . .

ويصوِّر ذلك الطريقَ ، ويعبر عن مناهجه قول الرسول صلوات الله عليه :

« عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ فإنَّ الصدقَ يهدِى إلى البِرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدِى إلى الجنة ، وما يزالُ الرجلُ يصدُق ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكتَب عند اللهِ صدِّيقا . . » .

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البخارى .

وإياكم والكذبَ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور وإنَّ الفجورَ يهدى إلى النار ، وما يزالُ العبد يكذبُ ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » .

وليس الصدقُ طريقًا إلى رضوان الله ـ سبحانه ـ وعظيم مَثُوبَتِه فحسب ، بل هو طريقُ النجاح فى الحياة ، وهو الصراط المستقيم الذى يصل بصاحبه إلى التوفيق فى سُلوكه ، والرشاد فى سَعْيه ، وهو بذلك طريقُ النجاة فى الدنيا والآخرة . أما الكذبُ فليس وراءه إلا ضلالُ القَصْدِ ، وسوءُ العاقبة ، مهما بَدَا لِلنَّظر القاصِر غير ذلك . .

وفى هذا يقول النبى صلوات الله عليه :

« تحرَّوْا الصِّدْق ، وإن رأيتُم أنَّ الهلَكَةَ فيه ، فإن فيه النجاة [1] » .

وبذلك يَصبِح الصدقُ فى نظر المسلم سُنَّة من سنن النجاح فى الدنيا ، والفلاح يوم القيامة ، وقانونًا من قوانِين الإيمان يعْكِسُ نظْرَة المسلم إلى الحياة ، ويدلُّ على طريقه الذى ارتضاه . .

ومن هنا يبلغ المسلم الغاية فى طلب الصدق ، فيحرِصُ على

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا .

أن يعتادَ لسانُه قولَ الحق ، فى الصغير والكبير ، وفى الجِدِّ واللعب حتى يصبحَ الصدقُ سِمَةً من سِماته ، وصِبْغة فى خُلُقِه لا تزول ، مُهتدِيًا فى ذلك بقول الرسول الكريم :

« لَا يُؤمِنُ العبدُ الإيمانَ كلَّهُ حتى يتركَ الكذِبَ فى المِزَاحِ [١] ».

وبقوله : « من قال لِصبِيٍّ تعال هاك - أى لأعطيك - ثم لم يُعْطِه فهى كذبة [٢] » .

وليس وراء ذلك غاية فى تَزْكِيَةِ النفس ، وتهذيب الخلق ، والسمو بالإنسانية إلى أعلى مراتبها من رعاية الحق ، وإيثار الصدق فى كل شأن وعمل . .

* * *

إنَّ الصدقَ فى نظر المسلم ، وفى مفهوم الإسلام ، ليس وصفًا لالتزام الحقيقة فى القول ، والحرص على الصواب فى المنطق فحسب ، ولكنه وصفٌ لاتجاه المسلم فى حياته ، وحقيقةٌ تدل على مَعْدَنِه ، وتوضح طريقه .

فالصدقُ فى العمل يعنى إخلاص النيّة واجتناب الرياء الذى يحبط العمل ويفسد الحياة ويجعلها زورًا لا حقيقة وراءه . .

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه أحمد

« وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [١] » .

والمسلم الصادق لا يعمل إلا لله ، ولا يبغى من سعيه إلا رضاه ويعلم أن ماعدا ذلك من الغايات والمقاصد ضلال فى السعى ، وهلكة للنفس ، وفساد فى المجتمع . .

وحين سأل أحد الصحابة رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنى أحبُّ أن أُقاتل فى سبيل الله ، وأحبُّ أن يرى الناس مكانى » نزلت الآية الكريمة :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [٢] » .

وهكذا فإن المسلمَ يصدُق مع ربه ، كما يصدُق مع نفسه ومع الناس ، فيصبح ظاهرَه كباطِنه فى الصفاء ، والطهر ، والاستقامة ، ويجعل وسائله فى حياته شريفة كغاياته ، فهو يعلمُ من كتاب ربه ، أنَّ الكذب سبيل الضلال بل هو طريق الكفر ، لأنه مذهب لا يختلف ، وطريق تدل بدايته على نهايته ، فمحال أن يختارَه مسلمٌ يبغى لنفسه حسن العاقبة :

---

(١) سورة البينة .

(٢) سورة الكهف .

« إنما يَفْتَرِى الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ [١] » .

وأقبحُ الكذب وأشدّه عقابًا ما انتُهِكَتْ به الحُرُمات ، وضاعت به الحقوق ، كشهادة الزور ، التى تَقْلِبُ ميزانَ العدل ، وتغيِّرُ وجه الحق ، فَتَشِيعُ المظالم ، ويُظْهِرُ الفساد . ولذلك نهى الإسلام عنها أشدَّ النهى ، وشدّد النكير على من يشهدونها . فجعلها من أكبرَ الكبائِر عند الله ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه :

« ألا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ - ثلاثًا - قلنا بلى يا رسول الله . قال : الإشراكُ باللهِ وعقوقُ الوالِدَيْن ، وقَتْلُ النَّفْس - وكان متكئًا فجلس - وقال : ألاوقول الزور ، وشهادة الزور . فما زال يكرِّرها حتى قلنا ليتَه سكَتَ [٢] » .

ومن هنا فإن التزام المسلم بالحق ، وحرصَه على رعايته مهما كلَّفه ذلك من عناء يعود على المجتمع كلِّه بالطمأنينة ، ويُسْبِغُ عليه ظِلَّ الأمان ، حتى لِيَصِلَ المسلمُ إلى درجات عالية

---

(١) سورة النحل ١٠٥

(٢) رواه البخارى .

من المِثَالِيَّةِ والتَّضحِية ، ومُجَانَبَةِ النفع الذاتى ، فى سبيل خير المجتمع ، والحفاظ على حقوق الإنسانية :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِين ، إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وإن تَلْوُوا - أو تُعْرِضُوا فإنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [١] » .

ومعنى ذلك أنَّ الصدقَ فى ميزان المُسلم الحَقِّ غاية فى ذاته .. دون نظر إلى نَفْعٍ ، أو حِرْص على مصلحة : إنَّه شهادةُ لله ، واستقامةٌ مع سننه فى الكون والحياة ، وليس وراء ذلك مثاليّة ولا ارتقاء بالإنسانيّة ..

* * *

---

(١) سورة النساء ١٣٥ .

الأسئلة

الصدق فى نظر المسلم ليس إلا الحق الذى هو أساس الإيمان وعماد الوجود ، أما الكذب فهو الباطل الذى لايقوم له بناء ، ولا تثبت له قدم .

(أ) بم وصفت العبارة كلا من : « الصدق والكذب » .

(ب) ما دلالة ذلك الوصف بالنسبة لكل منها ؟

(جـ) تحدث عن أثر صدق المسلم مع نفسه ، ومع الناس ، ومع ربه .

* * *

حافظ لأمانته

الأَمانَةُ خلُقٌ من أَخلاقِ المسلمِ الأَصيلةِ التى تنبُعُ من عقيدته، وتدُلّ على صِدْقِ اتجاهه، وشرفِ غايته . .

ولهذا كانت الأَمانةُ من لوازمِ الإيمانِ، وكانت الخيانةُ من علامات الجحُودُ والكُفْران، كما يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ »[1] . .

* * *

والأَمانةُ بمعناها الحقيقىُّ فى نظرِ المسلم صفةٌ نفسيّةٌ تُمْلِى على صاحبِها سلُوكًا لا يتبدّلُ إزاء كلِّ ما يُعْهَدُ إليه القيامُ به، وكلِّ ما يلتزمُ ويتحمّلُ مسئوليّتَه . .

وهى بهذا تُحيطُ بكل تَبِعَاتِ الحياة الصغيرةِ والكبيرةِ، وتتناولُ كلَّ الأَعباء التى يحمِلُها الإنسانُ . .

وفى ذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رعيّتِه، فالإمامُ راعٍ

(١) رواه أحمد .

ومسئُولٌ عن رعيَّتِه ، والرجلُ راعٍ فى أهلِهِ ومسئُولٌ عن رعِيَّتِه ؛ والمرأَةُ فى بيتِ زوجِها راعيةٌ وهى مسئُولَةٌ عن رعيَّتِها ، والخادمُ فى مالِ سيده راعٍ وهو مسئُول عن رعيَّتِه »[١] . .

غير أن العِبْء يعظُم ، والمسئولية تتأكَّدُ ، كُلما اتسعَ النطاقُ ، وثَقُلت الأَمانةُ . .

فالولايةُ على الناس ، ورعاية أُمورهم ، أمانةٌ كبرى ، لايستشرقُ لها المُسلم إلا حين يثقُ فى قدرته على حَمْلِها ، وكَفَاءَتِه أمام أعبَائِها ، وصِدْقِ نيتِه فى إشاعةِ الخيرِ بين الناس ، وكَبْحِ نوازع الشر عنهم . . وإلا عرَّض نفسه للحساب ، وجلَب عليها سوء العقاب .

عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تسْتَعْمِلْنِى ؟ (أى تسْنِد إلىّ عملا أقوم به ؟) قال . فضرب بيده مِنْكَبِى ثم قال :

« يا أبا ذَرٍّ : إنكَ ضعيفٌ ، وإنها أمانَةٌ ، وإنَّها يوم القيامَةِ خِزْىٌ وندَامَةٌ ، إلا منْ أَخذها بحقِّها ، وأدَّى الذى عليهِ فيها[٢] »

والحقُّ أنَّ ضياع تلك الأَمانةِ من علاماتِ انتهاء الحياةِ فى

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم

الأَرض ، وأَماراتِ اقترابِ القيامة . . وهو دليلٌ على فسادِ الحياة ، واختلالِ موازينها .

فقد جاء رجل يسأَلُ رسول الله : متَى تقومُ الساعةُ ؟

فقال له : « إذا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فانتظِر الساعةَ » . فقال : وكيف إضاعَتُها ؟ قال : « إذا وُسِّدَ الأَمْرُ لِغَيْرِ أَهلِه فانتَظِرِ السّاعةَ »[1] .

ومن هنا فإِنَّ المسلمَ يُحْسِنُ القيامَ بكلِّ ما يُعْهَدُ به إليه ، ويعلَمُ أَنها أَمانةٌ يُسأَلُ عنها ويتوقَّفُ مصيرُه على أَدائِها .

* * *

والمسلمُ الحق يعلم أَن النِّعَمَ والمواهبَ أَمانةٌ ، وعطاءٌ مشروط بأَن يتجه به الإِنسان إلى سبيله القويم .

ومن العجيب أَنَّ كثيرًا من الناس يُهلِكُون أَنفسهم ، فيجْحدُون فضل الله ، ويضَعُون نِعَمهُ فى غير مَوَاضِعِ الشُّكْرِ والطَّاعَةِ .

وتلك خيانةٌ تجلِبُ على صاحبِها الشقاء فى الدنيا والآخرة .

والمسلمُ يعلم أَنه مسئُول عن تلك النعمِ التى ابتلاهُ الله بها ،

---

(١) رواه البخارى .

فيحرصُ على أن يوجِّهَها فى سبيل الخير ، وأن يَرْعَى فيها حُدُودَ الله ، فيستديمَها بالشكر وينجَحَ فيما يعرِضُ له من ابتِلاء .

مدركا خطر المسئولية التى تتجلى فى قوله صلوات الله عليه :

« لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القِيَامَةِ حتى يُسأَلُ عن أربعٍ : عن عُمره فيمَ أفنَاه ، وعن شَبَابِه فِيمَ أبلَاه ، وعن مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفِيم أنْفَقَهُ ، وعن عِلْمِه مَاذَا عَمِلَ فيه »[1] .

* * *

أما جانبُ المعاملةِ فإنَّه موطن عظيم من مواطن الأمانة التى يجب أن تتجلَّى فى المسلم حتى يتضح يقينُه بما للناس من حقوق .

« إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا . . »[2] .

فما يجوز أن يستبيح المسلم لنفسه من حقوق الناس شيئاً ، وإن هان ، فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين الذين يعلمون أنَّ كلَّ المُسلمِ على المُسلِمِ حرامٌ . . دمُه ومالُه وعِرْضُه .

وقد بيّن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أنَّ الله سبحانه قد

---

(١) رواه الترمذى

(٢) سورة النساء ٥٨

يغفرُ حقوقَه ، ويصفحُ عن سيآتِ عباده ، ولكنّه لا يعفُو عن حقوق العباد .

ففى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال :

« إذا خلص المؤمنون من النار - أى اجتَازُوا الصِّراطَ - حُبِسُوا على قَنْطَرةٍ بين الجنة والنار فيتقاصَّوْنَ مظالِم كانت بينَهم فى الدُّنْيَا » .

• • •

ولهذا فإن ضَمير المسلم يستيقظ ، وإحساسُه يرِقّ ، فيؤدى الأمانةَ للناس أجمعين وصدق رسول الله . .

« لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عَهْدَ له » [1] .

وذلك هو الإسلامُ الحق الذى يَشيع الأمنَ بين الناس ؟ ويحفظ لكل فرد حقه ، ويصون حرماته .

• • •

إنّ المسلمَ يعلمُ أن حياةَ الإنسانِ فى هذه الدنيا مجموعةٌ من الأمانات صغيرة كانت أو كبيرة .

وهو مطالبٌ أن لا يخونَ فيها ولا يفرِّط فى أدائها . .

---

(١) رواه أحمد

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١) .

ولكنَّ العجيبَ أنَّ سلوكَ أكثرِ الناس فى هذه الدنيا يتَّسِمُ بالخيانة والتفريط . . ! وهذا ما سجّله القرآن فى قوله :

« إنَّا عرضْنَا الأَمانةَ على السَّمواتِ والأَرضِ والجبال فأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنها وحمَلَهَا الإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » (٢) .

نعم . . لقد كانت الحياة منذ قامت مسرحًا للجهالات وميدانًا للتظالُمِ ، مما يجعلُ الخِيانَةَ سِمَةَ بارزة لكثيرٍ من المجتمعات والعصورِ ، ولا عاصمَ من ذلك إلا صدقُ الإيمانِ ، ويقظة الضمير ، التى تبرىءُ صاحِبَها من الظُّلم ، والجهل ، وتَشُدُّ يده بِعُرَى الأَمانة والإِيمان .

• • •

---

(١) سورة الأنفال ٢٧

(٢) سورة لأحزاب ٧٢

الأسئلة

الأمانة بمعناها الحقيقى فى نظر المسلم صفة نفسية تملى على صاحبها سلوكًا لايتبدّل إزاء كل ما يعهد إليه بالقيام به ، وكل ما يلتزم ويتحمل مسئوليته وهى بهذا تحيط بكل تبعات الحياة الصغيرة والكبيرة ، وتتناول كل الأعباء التى يحملها الإنسان .

(أ) ما الأمانة فى نظر المسلم ؟

(ب) كيف تحيط الأمانة بكل تبعات الحياة ؟

(جـ) ما أثر الأمانة فى تناول الأعباء التى يحملها الإنسان ؟ وما تأثير ذلك فى المجتمع ؟

متسامح مع الخلق

« وَلَا تَسْتَوِى الحَسَنةُ ولَا السَّيِّئَةُ ، ادفعْ بالَّتِى هى أَحْسَنُ فإذا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كأَنَّهُ ولِىٌّ حميمٌ » (١) .

* * *

صلة المسلم بالناس تشملها السماحة ويظللها الحلم ؛ ويحيط بها العفو والتجاوز وضبط النفس .

إن ذلك من علائم التَّقوى ، وأمارات الإيمان ، كما أنه من دلائل قوة النفس وسمُوِّها ، واعتدادها بإيمانها ، وارتفاعها عن سوءات الحقد ، ومشاعر السوء .

وقد كان ذلك المعنى من معانِى الإيمان التى بدل الإسلامُ أفهامَ العرب عن القوة والبأس ، فقد كانوا من قبل يظنون أن القوة فى الانتقام والغلبة .

ولذلك قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : ما تعدون الصُّرعة فيكم ؟ (أى القوى الشجاع) قالوا : الذى

---

(١) سورة فصلت ٣٤

لاتصرعه الرجال ، قال : « لا ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب »[١] .

فذلك هو الذى نضج إيمانه وقهر هواه وسيطر على نوازعه وسلوكه .

* * *

ولئن كانت المشاعر الغريزية للإنسانِ تدفعه إلى الانتقام والانتصار ، وتغريه أن يقابلَ السوء بمثله ، فهذا حق أباحه الإسلام للنفس البشرية مقيدًا بعدم التجاوز كما يقول الله تعالى

«فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»[٢]

وكما يقول فى أوصاف المؤمنين :

« والَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُون »[٣] .

لكن الإسلام بعد تقرير هذا الحق ، أهاب بالإنسان أن يسمو إلى منزلة أعظم من ذلك وأكرم ، منزلة ينالها المسلم بإيمانه وتقواه ، وله بها أعظم الأجر من الله .

---

(١) رواه مسلم
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) سورة الشورى ٣٩

وفى ذلك يقول تعالى :

« وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »[1] .

وذلك يجعل المسلم يؤثر ثَوابَ الله على شفاء الغيظ وإجابة نداء الانتقام ويصفح عن أخيه ، رجاء لما عند الله من عظيم الأجر فقد تكفل بإرضائه وإثابته ، جزاء تجاوزه عن الإساءة وترفعه عن الانتقام ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : « فأَجرُه على الله » . . وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إذا كَانَ يَومُ القيامةِ ينادِى مُنادٍ : لِيَقُمْ من أجرُه على الله فَلْيَدْخُل الجنَّة ، وهم العافُون عن الناس »[2] .

* * *

إن المسلم يعلم أن الحلم والعفو منزلة من منازل الإيمان .

وليس علامة ضعف ولا أمارة جبن .

إنه أمارةُ اليقين بأن الله صاحب الحساب والجزاء ، وبأن ثوابه الذى أعد للعافين عن الناس ، خير من لذة الانتصار والانتقام .

---

(١) سورة الشورى

(٢) رواه الطبرانى بإسناد حسن . وهو من حديث طويل بمعناه

ولذلك يرقى المسلم إلى تلك الدرجة العليا وذلك الثواب العظيم.

يبين ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ كظَمَ غَيْظًا وهو يستطيعُ أن يُنَفِّذَهُ دعاهُ الله يَوم القيامة على رُءُوس الخلائقِ ، حتى يُخَيِّرَه في أيِّ الحُورِ شاء »[1] .

وهذه دلالة على استحقاقه الجنة ، وفوزه برضوان الله .

* * *

إن الإسلام يجعل العفو والصفح سبيلا من سبل التهذيب الخلقي ينظف القلب من مشاعر الحقد ، ويطهره من نزعات السوء ، وبذلك يرتفع يقين المسلم ، ويثبت إيمانه ويبلغ كماله ، فتعلو منزلته عند الله ويعظم ثوابه .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ألا أُنبئُكُم بما يُشَرِّفُ اللهُ به البُنيان ، ويرفعُ الدرجات » ؟ قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : « تحلُمُ على من جَهِلَ عليك ، وتعفُو عمّن ظلمك ، وتُعطِي من حرَمك ، وتَصِلُ من قَطَعَك »[2] . .

---

(١) رواه أبو داود ، والحور : نساء الجنة .

(٢) رواه الطبراني

وذلك سمو بالإنسانية إلى أرفع درجة يطبقها الإنسان ، فيهذب نفسه ويطهرها من نوازع الشر وبواعث الانتقام .

• • •

والمسلم فى ذلك العفو والتسامح يصدر عن وَعْىٍ بأمن المجتمع وسلامه ، فهو يعلم أن صغار الشرور تَهيج كبارها ، وأن التنازع يُودِى بقوة الجماعة . .

فالخصومةُ ، والقطيعةُ بين الأفراد والجماعات ، تَهْدِم أمنَ المجتمع وتزلزل أركانَه ، وتجعله مسرحًا للفتن والأحقاد .

« وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم »[١] .

وهو يعلم أن رباط الأخوة من القوة والأصالة بحيث لاتفصمه الضغائن أو أزمات الحياة وصعاب المعاملة . .

فالأخوة بين المسلمين يجب أن تكون أقوى من المنازعات والأحقاد .

فإن الصلة بينهم من صنع الله ، يقويها اجتماعهم على دينه ، ونصرتهم لشريعته . .

ومن هنا يصبح العفو ضرورة يحتمها حفظ الكيان الاجتماعى

---

(١) سورة الأنفال ٤٦

ويدعو إليها ما يجب أن يشيع بين المسلمين من حب ورحمة حتى تنمو الصلات وتقوى الروابط ..

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [1] ».

• • •

وإذا كان هذا شأن المسلم فى الصفح والغفران عن زلات أخيه ، فإنه بالأحرى لايعتدى عليه ولا ينتهك حرمته . .

فالعدوان جريمة ينبغى ألا يفكر فيها مسلم ، وأمامه قول الرسول الكريم :

« كلُّ المُسلِمِ عَلى المُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُه وَمَالُه وَعِرْضُه »[2]

فأيّاما نظر المسلم إلى أخيه فلن يجد منفذًا للشر ينفذ منه إليه ، مادامت الأخوة بينهما قائمة ، وما دام الحق والعدل يظل المجتمع كله .

فلا سِبابَ ولا نِزَاع ولا قتالَ من المسلمين ، وإلا فهو الفسق والكفر ، كما يقول النبي صلوات الله عليه :

---

(١) سورة النور ٢٢

(٢) أخرجه الستة إلا النسائى وهذا لفظ مسلم .

« سِبابُ المُسلم فسُوقٌ ، وقِتالُه كُفْرٌ » [١] . . وكما يقول :

« مَا مِنْ مُسْلِمَيْن إلا وبيْنهما سِتْرٌ من الله عز وجل ، فإذا قال أحدهما لصاحبِه كلمة هَجْر ، خرق ستْرَ الله » [٢] . .

تلك هى الصلة التى تنبغى بين المسلمين . .

• • •

لقد جعلهم الله إخوة وذكرهم بنعمته التى تستوجب الشكر وتستأهل العرفان :

« واذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ علَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأنْقَذَكُمْ مِنْهَا [٣] » فلا بدّ للمسلم من أن يقى الناس شره ، وحذرهم رسولهم من الفتنة والفساد ، وبصّرهم بعواقب التنازع حين قال :

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه البيهقى .
(٣) رواه البخارى .

« فلا ترْجِعُوا بعدِى كفَّارًا يضرِبُ بعضكم رقاب بعضٍ »[1]

فيسلمون من لسانه ويده ، وأن يشمل إخوانه صفحه وتسامحه ، فذلك أجدى عليه وعلى الإنسانية جميعًا . .

• • •

---

(١) سورة آل عمران ١٣٠

الأسئلة

صلة المسلم بالناس تشملها السماحة ، ويظللها الحلم ، ويحيط بها العفو والتجاوز وضبط النفس .

(أ) ما معنى كل من : (العفو - التجاوز - ضبط النفس).

(ب) ما الصلة التى يجب أن يسود المسلم فى علاقته بالناس .

(جـ) ما أثر هذه الصلة فى حياة الفرد والمجتمع ؟

• • •

صبور على الشدائد

« والصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِين البَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدقوُا وَأُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ »[1] . .

• • •

الصبر من أخلاق المسلم ووسائله فى الحياة التى هداه إليها القرآن .

« واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ »[2] .

وهو من دلائل صدق الإيمان ، فإنه لا يصبر لحكم الله إلا مؤمن به ، مقدر لحكمته ، مبتغ لثوابه في الدنيا والآخرة . .

« ولَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[3] . .

• • •

والمسلم يعلم أن الصبر ضرورة فى هذه الدنيا . .

فالدنيا ميدان فسيح تعاقبت عليه الأجيال ، واختلفت عليه

---

(١) سورة البقرة ١٧٧

(٢) سورة البقرة ٤٥

(٣) سورة الشورى ٤٣

الأمم ، فواجهتهم طبيعة الحياة ، وما زال هذا الميدان يستقبل أجيال البشر بطبيعة لا تتغير وحقيقة لاتختلف ، يشير إليها قول الله سبحانه :

« ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[1] .

فالصبر يجعل المسلم يحسن التصرف فى كل موقف ، ويواجه الحياة بمشاعر ثابتة ، وقلب مطمئن . .

فإن ذلك هو ما يقتضيه الإيمان وما يثمره اليقين .

وهل هناك ما يحفز الهمم على الصبر للنجاح فى معركة الابتلاء أعظم من قوله سبحانه :

« لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[2] . .

* * *

ولئن كان كل إنسان يحب أن تسير الأمور على هواه . .

---

(١) سورة البقرة ١٥٥

(٢) سورة آل عمران ١٨٦

فإن للقدر خطة محكمة ونهج مرسوم . .

وليس أمام الإنسان إلا أن يتقبل الأحداث ويواجه الواقع ، بتسليم ورضا ، فإن ذلك خير له فى الدنيا والآخرة ، أما الجزع والسخط فإنه يحرمه راحة الدنيا وثواب الآخرة . .

والمسلم يعلمُ أن قوة الله لاتُقهر ، وإرادته لاتُغلب ومشيئته لاتردّ ، ورحمته من وراء ذلك للصابرين ، وهدايته للموقنين :

وإن قلبه ليغمره الرضا وتملؤه السكينة حين يتلو قوله تعالى :

« وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذينَ إذَا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لِلهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ * أولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَة ، وأولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »[1] . .

فالرضا والاحتمال نعمة كبرى يهبها الله للصابرين ، الذين يرضون بحكمه ، ويستسلمون لإرادته ، فيكتسبون طمأنينة النفس وثقة القلب وصلاح البال ، وهذا خير عطاء وأفضل نعمة ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « . . ومَنْ يتصبر يُصبِّرُه الله ، وما أُعْطِىَ أحدٌ عَطَاءً خيرًا وأوسَعَ منَ الصَّبْرِ » .[2]

---

(١) سورة البقرة ١٥٥ – ١٥٧

(٢) رواه البخارى .

والمسلم يعلم أن الابتلاء مهما اشتد فهو خيرله فى الدنيا والاخرة ، بل هو دليل على أن الإيمان يعمر قلبه وأن القدر يرشحه بذلك للدرجات العلى . . ولهذا كان الابتلاء سنة لاتتبدل فى حياة المصطفين الأخيار . .

فإن قلوبهم عامرة باليقين ، مزودة بطاقة من التحمل والثبات . . فقد سئل رسول الله صلوات الله عليه : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياءُ ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ ، يبتلى الناسُ على قدرِ دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه ، وإن الرجلَ ليصيبُه البلاء حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »[1] . .

ومن هنا فإن المسلم لايهن أمامالبلاء ، ولا ينكص على عقبيه إن مسته الضراء ، لأنه يعلم أن للإيمان تبعات ، وأن المكاره طبيعة الحياة التى يميز الله بها الخبيث مع الطيب ويمحص بها الصدق من الادعاء :

« أم حَسِبْتُمْ أن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »[2] . .

---

(١) رواه ابن حبان .

(٢) سورة آل عمران ١٤٢

فإذا انتهت هذه الدنيا وانطوت صفحتها ، فإن للصابرين من عظيم الأجر وكريم الجزاء ، وما ينسيهم مالقوا فى الحياة من جهد وعناء :

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١) » .

وهذا الأجر الجزيل فى دار الخلود لا تقاس به نعمة أو سلامة فى الدنيا الفانية مهما طالت ، التى يزول نعيمها وتنسى لذتها . .

ولذلك « يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة حين يعطَى أهـلُ البلاء الثوابَ لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض (٢) » . .

والمسلم يميز ببصيرته بين المواطن التى يحمد فيها الصبر ، والتى يتخذها من الصبر سلاحًا ماضيًا فى جهاده وكفاحه فى سبيل الحق فهو لايصبر على الذل ولا يرضى بالضيم ولا يستسلم للطغيان :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ

(١) سورة الزمر ١٠

(٢) رواه الترمذى .

أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [1] » .

أما صبر المسلم فإنه قوة دافعة تجعله أصلب عودًا وأشد بأسًا فلا يجزع ولا يفزع :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [2] » .

* * *

---

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠

الأسئلة

الصبر يجعل المسلم يحسن التصرف فى كل موقف ، ويواجه الحياة بمشاعر ثابتة ، وقلب مطمئن .

(أ) لماذا كان الصبر من أخلاق المؤمن ؟

(ب) ما أثر الصبر فى حياة الإنسان ؟

(جـ) ما العوامل التى تساعد الإنسان على الصبر ؟

* * *

عفيف قنوع

« . . إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ، والنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [١] » .

* * *

إن المسلم ينظر إلى الدنيا فيراها على حقيقتها ولا يلهيه العاجل عن الآجل ، ولا تخدعه زخارف الحياة وأباطيلها .

فلا يعيش فى دنياه حيوانًا ، يبحث على اللذائذ ويغرق فى الشهوات .

بل إن له من أهدافه للعليا ما يحجبه عن العبث ويعصمه من النزق والفجور . .

فهو يعلم أن متاع الدنيا ونعيمها ليس غاية من غايات الوجود ، فلا ينبغى أن يشتغل به الإنسان ويغرق فيه ، فيتعب نفسه بلا طائل ، ثم يتبين سوء العاقبة فى الدنيا والآخرة . كما يقول الله تعالى :

---

(١) سورة محمد ١٢

« أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّاكَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [١] » . .

• • •

والمسلم لايحرم على نفسه طيبات الحياة ولا يمنعها حقوقها المشروعة . .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ، ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لايُحِبُّ المُعْتَدِينَ » [٢].

ولكنه يقيد نفسه فى استمتاعه بالحياة بقيدين : الحلال والاعتدال .

فلا يظلم نفسه بانتهاك حرمات الله ، ولا يعتدى بالخروج إلى حد الإسراف الذى يمقته الإسلام . بل يلتزم بما رسمه الإسلام له من الطريق الوسط فى سلوكه فى دنياه وتمتعه بها . .

كما يشير إليه قوله سبحانه :

« وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ

(١) سورة الشعراء ٢٠٤ - ٢٠٦

(٢) سورة المائدة ٨٧

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١) » .

* * *

ومما يعين المسلم على الزهد فى شهوات الغىّ والقناعة بالطيب من الرزق أنه ينظر إلى دنياه وأخراه معًا . .

فبينما هو يعمل للدنيا لا ينسى واجب الآخرة . .

فلا يجعل متاع الدنيا أكبر همه ، ولا يتهالك على شهواتها ، بل يأخذ من دنياه بقدر ما يعينه على نَيْل ثواب ربه فى الآخرة . .

كما قال الله عز وجل :

« فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِى الآخِرَةِ من خَلاقٍ ، وِمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا » (٢) . .

والنظر البصير إلى الحياة يجعل الإنسان لا يبتغى من دنياه

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ ، ٣٠

(٢) سورة البقرة ٢٠٠ — ٢٠٢

إلا ما به قوام العيش وأمن الحياة ، دون حرص على المناعم أو ولوع باللذات . .

« من أصبح منكم آمِنًا فى سِرْبه ، مُعَافًى فى جَسَده ، عِندَهُ قُوتُ يومهِ ، فكأنَّمَا حِيزَتْ له الدُّنيا بِحَذافِيرها »[١] .

فحسب الإنسان فى دنياه : الأمن والعافية وقوت اليوم . .

أما الإغراق فى المتاع ، فإنه فضول ليس من مطالب الحياة وليس من أهدافها ، بل هو كما يقول النبى : « إياك والتنعم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين[٢] » . .

* * *

والمسلم يدرك أنه لا علاقة بين حظوظ الناس من المال وإحرازهم للثروة ، وبين حظهم فى الآخرة ونيلهم لرضوان الله .

فقد ينال الإنسان المال الوفير ولكنه لا يكون فى حساب الحق شيئًا ذا قيمة ولا يقع من رضوان الله بمكان . .

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ[٣] » .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه أحمد .

(٣) سورة المؤمنون ٥٥ — ٥٦

ولا تقف الآيات عند هذا الحد ، بل تعقب ذلك برسم صورة مثالية للذين يسارعون فى الخيرات ، وينالون أرفع الدرجات حتى تتحطم المثل الزائفة التى كانت تغشى الأبصار فى الجاهلية العربية . . وكل جاهلية . .

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، والَّذِينَ هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، والَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ والَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أَتَوْا وَقُلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُون ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ »[1] .

إن هؤلاء الذين يبتغون من حياتهم تحقيق مثل أعلى يؤمنون به ويعملون له ، والذين تسقط لديهم كل قيمة زائفة وكل نظرة إلى الحياة مختلة ، فلا يرون فى الثروة غاية تُبتغى ولا هدفا يُذهل الإنسان عما وراءه . . هؤلاء ينفقون ويؤتون فى سبيل الخير « ما آتوا » « وقلوبهم وجلة » تخشى سوء الحساب وتقدر عظم التبعة وتحس بخطر التكليف وثقل الأمانة التى حملها الإنسان . .

وأولئك ينظرون إلى المال على حقيقته ، وسيلة يشارك بها

---

(١) سورة المؤمنون ٥٧ — ٦١

الإنسان فى الخيرات ، وابتلاء ينجح الإنسان فيه على قدر إحسانه التصرف فيما وهب له ، فلا يستذلهم المال ولا يخفض هاماتهم حب المتاع ، ولا يتخلون عن الحق ولا يُغضون عن الفساد.

ولذا فإن المسلم لايغتر بمظاهر الثروة ما دامت فى أيد مفسدة لاتحيا لمبدإ ولا تؤمن بحق . .

فما دامت بعيدة عن طاعة الله لاتتجه إلى الخير والإحسان ، فهى استدراج يُفْضى بصاحبه إلى الشقاء والبوار . .

« وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ [(١)] » .

وعجيب فى المنطق المادى أن تصبح النعمة أداة عذاب لصاحبها ، ولكنها الحقيقة التى يؤيدها التاريخ أن الطمع والشراهة والشح ، شر على صاحبها وعلى المجتمع البشرى ، فيصبح المال فى أيدى المفسدين وبالا وفتنة .

وفى مقابل هذا ربما كان بين المقلين الزاهدين فى متاع الحياة من يرفعه الحق إلى أسمى الدرجات بيقينه وتقواه . . « رُبَّ أشعَثَ أغبَر ذى طِمْرين [(٢)] لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ [(٣)] » .

---

(١) سورة التوبة ٨٥

(٢) الطمر : الثوب البالى

(٣) أخرجه الترمذى .

وهذا خليق أن يعلق نظر المسلم بالحقائق ، وأن يزهده فى المظاهر والأشكال فيضع الناس حيث وضعهم الله ويقدر الأمور بميزانها المستقيم . .

فإذا طمح الناس إلى المتاع وتكالبوا على اللذائذ ، فإن المسلم يملك نفسه ويحزم أمره ويؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ويصبر على تكاليف الحق ويزهد فى عرض يَحُول وظل يزول :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآب [1] » .

• • •

(١) سورة آل عمران ١٤

الأسئلة

يجب على المسلم أن ينظر إلى الدنيا فيراها على حقيقتها ، ولا يلهيه العاجل عن الآجل ، ولا تخدعه زخارف الحياة وأباطيلها .

(أ) كيف يرى المسلم الدنيا على حقيقتها ؟

(ب) ما أثر هذه الرؤية فى تصرفاته ؟

(جـ) ما رأيك فى الإغراق فى المتاع ؟ ولماذا ؟

مستزيد من المعرفة

إن العلم فى نظر المسلم هو قمة الهدى التى يبلغها الإنسان ، وهل الإيمان إلا نوع من العلم بالله ، وتصحيح النظرة إلى الكون والحياة ، محوطًا بالحقائق والدلائل : ؟ .

ولهذا يجعله القرآن مقابلا للكفر الذى هو جهل وضلال :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ ٱلْأَلْبَابِ [١] » .

إن المعركة مع الكفر هى معركة مع الجهل والخرافة ، إذ يقوم الكفر على أوهام وأكاذيب لا سند لها ولا برهان :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين » [٢]

ومن هنا كان شقاء الجاحدين حين اتبعوا أهواءهم وقدّسوا أوهامهم ولم يبحثوا عن الحق ولم يتحروا الصواب : « بل اتبع

---

(١) سورة الزمر ٩

(٢) سورة الأحقاف ٤

الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ؟ »[١] .

وذلك ما يجعل المسلم حريصًا على العلم معوِّلا عليه فى بلوغ الحقيقة واستقامة الطريق . .

والمسلم يرى فى آيات الكتاب أنها إنما أُنزلت للعالمين ، الذين يخرجون من أسوار الجهالة ويفتحون عقولهم لضياء المعرفة :

« وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُون »[٢] . . فأُولئك الذين يَسْتجْلون آيات الله ويفهمون دلائل وجوده وقدرته ، ولهذا كان الإيمان الصحيح بحاجة إلى قاعدة من السلم وهداية من العقل تساند الشعور وتوجه العاطفة ، وتمد القلب بألوان من الطمأنينة واليقين . .

« وَهُوَ الَّذِى جعَلَ لكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ[٣] » .

---

(١) سورة الروم ٢٩

(٢) سورة العنكبوت ٤٣

(٣) سورة الأنعام ٩٧ ، ٩٨

إن ذلك يلفت الأنظار إلى مشاهد الكون ويجعلها سبيلاً إلى معرفة الخالق وفهم أسرار الحياة . .

فما كان الشرك بالله إلا عن جهالة بقدره وذهول عن عظمته المتفردة ومشيئته المطلقة : « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ! »[١] .

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ »[٢] . .

وما يكون التوحيد والإيمان الصادق إلا عن وقوف على حقائق الكون وإدراك للقدرة التي تفردت بذلك الإبداع . .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وِمنَ النَّاسِ والدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ[٣] » .

ومن هنا فإن المسلم لابد أن يبرأ من الجهالة التي كانت وما تزال علة التكذيب والجحود . .

---

(٢) سورة الزمر ٦٤ .

(٣) سورة الزمر ٦٧

(٤) سورة فاطر ٢٧ ، ٢٨ .

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ [1] » .

إن إيمانه يرتقى به إلى آفاق سامية من المعرفة والهداية . .

وهو يبدأ فى العلم بأُولى المعارف وبديهيات الحقائق ، من الإيمان بالله ولقائه وما ينبغى له . ثم يطلق بصره فى الآفاق يتعلم كل خير ويتبصر فى كل ما يحيط به ويدرك من قضايا الوجود وحقائقه ما يشاء . .

وهو يعلم أن دائرة العلم فى الإسلام أوسع من أن تُحد وأشمل من أن تحصر بنوع أو اتجاه . فالمسلم يتعلم كل ما ينفعه وكل ما يطمح له ويستعد ، ويعلم من كتاب ربه أن العلم كان خاصة آدم الأُولى التى تميز بها على الملائكة « وعلَّم آدم الأَسماء كلَّها » وليس الأمر إدراك أسماء ، بل هو خبرة بالمسميات ومعرفة بطبائعها وأحوالها ، وفى هذا ما يشير إلى دور العلم فى حياة الإنسان وأثره فى تذليل الحياة له . .

لكنَّ المسلمَ يعلم أن العلم لا خيرَ فيه ولا أثَر له إن لم يهدِ إلى الحقيقة الأُولى ، وهى معرفة الله سبحانه . . وإلا فما فائدة أن يعلم الإنسان من خصائص الكون وطبائع الأَشياء ما يعلم ، ثم يغفل عن الخالق الذى أعطَى كل شىء خلقه ثم هدَى . . ! ؟

---

(١) سورة يونس ٩٣ .

إن العلم هنا لم يقمْ بدوره ولم يهد الإنسان إلى حقيقة وجوده ومهمته فى حياته ..

ولهذا ينعى القرآن على حضارات البشر الجاحدة التى تركتهم قطيعًا هملا لاتتعدى معارفهم المادة وظواهرها دون أن ينفذوا إلى الحقائق أو يعقلوا المعانى . .

« أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ ، مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسمًّى »[1]؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »[2]

وإنا لنرى الحضارات المادية فى عصرنا تنفذ إلى كثير من حقائق العلم المادى وتصل إلى آفاق عليا فى شتى ميادينه . . ولكن تصورها للحياة ومعرفتها بحقيقة الكون وغايته لاتعدو أن تكون معرفة ظنية تشوبها الخرافات والأوهام أو الجحود والنكران ، فما يتناسب تفوقها العلمى مع حظها من إدراك الحق وصلتها بالله خالق الكون والإنسان

أما الإسلام فإنه يرتب كل الحقائق ويبنى صروح العلم

---

(١) سورة الروم ٨

(٢) سورة الروم ٦-٧

على أساس اليقين بوجود الله وتوجيه الحياة إلى طاعته ، فالعلم فى نظر المسلم وحدة متكاملة لا يناقض بعضها البعض ، ولاتنقسم إلى شطر نظرى وآخر عملى ، بل تقوم على مبدأ واحد وإدراك متكامل لاتعدد فيه ولا انفصام . .

* * *

إن الإسلام يجعل العلم بمعناه الواسع فريضة على كل مسلم . .

وفى سبيل ذلك نوه القرآن بأداة العلم ووسيلته ، وهى الكتابة :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسَان مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّم بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » .

ومن هنا يدفع القرآن الإنسان إلى أفسح آفاق العلم والمعرفة . .

وقدوة المسلم فى ذلك رسوله الكريم صلوات الله عليه ، الذى وجهه القرآن أن يطلب المزيد من العلم وأن لايقف عند حد منه مادام يجد إليه سبيلا :

« وقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا [1] » .

---

(١) سورة طه ١١٤

وموسى الكليم الذى لم يستنكف أن يبتغى المزيد من العلم وتعرف الحقائق ، بعد أن أوتى الرسالة ، فقطع المسافات فى البحر يطلب المعرفة ويبحث عن الحق . .

« فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (١) » .

وهو توجيه راشد ، بابتغاء العلم من أى سبيل والجهد فى طلبه ، فإن « الكلمةُ الحِكمة ضالةُ المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها (٢) » .

ويكفى أن يكون طلب العلم طريقًا إلى الجنة ، ليعلم المسلم أن العلم النافع باب الإيمان : « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة » (٣) .

« إنَّ الملائكَةَ لتضع أجنحتَها على طالب العلم رضاً بما يصنع » (٤)

ولا ينتهى دور المسلم عند تطلب المعرفة والاستزادة من العلم ،

---

(١) سورة الكهف ٦٥ ، ٦٦

(٢) رواه الترمذى .

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

(٤) أخرجه [illegible] والترمذى .

بل إن ذلك يضع على كاهله عبئًا هو أن يعلم الجاهل ويرشد الضال وينشر ضياء المعرفة فى كل مجال .

فذلك أفضل المراتب التى يبلغها المسلم ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « خيرُكُم من تعلَّم القرآن وعلَّمه » [١] .

وقد أمر الرسول أصحابه أن يعيشوا العلم ويبلغوه : « ليبَلِّغ الشاهدُ الغائِبَ » ويقول : « بلِّغوا عنِّى ولو آية » [٢] .

بل إن كتمان العلم جرم كبير يؤذى صاحبه ويشقيه : « من سُئل عن علمٍ فكتَمه أَلجَمه الله بلجامٍ من نارٍ يوم القيامة » .

وذلك يجعل من المسلم الحق ضياء لمجتمعه وأداة نافعة لدينه ودنيــاه .

* * *

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أبو داود والترمذى .

الأسئلة

إن العلم فى نظر المسلم هو قمة الهدى التى يبلغها الإنسان ، وهل الإيمان إلا نوع من العلم بالله ، وتصحيح النظرة إلى الكون والحياة ، محوطًا بالحقائق والدلائل .

(أ) تحدث عن نظرة الإسلام إلى العلم .

(ب) ما مصدر علم المسلم الذى يمده بخير زاد ؟

وماذا يجب عليه أمام هذا المصدر ؟

(ج) متى يكون للعلم أثره المرجو فى نظر الإسلام ؟ ولماذا ؟

* * *

قوى صحيح

« . . يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ [1] » . .

* * *

هكذا يكون المسلم . . مثلا للإنسان الصحيح فى فطرته وتكوينه ، وفى قوته واكتماله ، فهو الصورة الصادقة للطاقة البشرية التى تنهض بالعبء وتعمر الأرض وتحمل أمانة الحياة .

والمسلم يفهم القوة بمعناها الصحيح ، إنها ليست الجبروت والقهر . والتطاول بل هى كمال البشرية الذى يتجه بجهد الإنسان إلى الخير وبقوته إلى الرحمة والعدل ، ويجعل منه أداة يحقق الله بها الحق ويبطل الباطل . .

وهى ليست قوة الجسم وحده ، ولكنها قوة الكيان الإنسانى كله ، الجسم والنفس والطاقة والخلق ، ولو كانت قوة المادة وحدها لأضحت شراً على صاحبها وعلى الناس ، وليس ذلك ما يرجوه الإسلام .

---

(١) سورة القصص ٢٦

وعلى ضوء هذا يدرك المسلم توجيه الإسلام إلى القوة وحرصه على أن تكون طابع أتباعه :

« المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعيفِ ، وفى كلٍّ خير ، احرصْ على ما ينفعُك واستعِنْ بالله ولا تَعْجز[1] »

إنها القوة المتكاملة التى ترتبط بالحق والعدل ، والتى لاتترك جانبًا من جوانب الإنسان يدبّ إليه الوهن والحزن .

والتى تجعل من المسلم سُنة من سنن الوجود ، يأتى بالخير أينما اتجه ويمكّن للحق والخير فى كل مجال . .

* * *

والمسلم يقدر عناية دينه بصحة الأبدان ، إذ هى سبيل الجهاد ووسيلة العمل فيعنَى بالوقاية وهى أول خطوة فى طريق العافية ، والتى تقيه آفات المرض وآلامه ، ومن أجلها كانت النظافة فريضةوشرطًا للعبادة فى الإسلام ، كالوضوء ، والغسل ، وطهارة الثوب والبدن والمكان ، وفى كل ذلك حفاظ على الصحة وتدريب على الطهر والنقاء . .

وفى سبيلها أيضًا كانتحريم الخبائث من الطعام والشراب ،

---

(١) رواه مسلم .

كالخمر والميتة والدم ولحم الخنزير : «يُحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائثَ »[1] .

وفى سبيل القوة كانت عناية الإسلام برياضة البدن وإقراره لما كان معروفًا منها بين العرب ، كالسباحة والرماية والفروسية « فقد مر الرسول صلوات الله عليه على قوم ينتصلون – أى يرمون السهام يصيبون بها الأغراض ، فقال :

« ارموا بنى إسماعيلَ فإن أباكم كان راميًا[2] » .

ومما ينسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« عَلِّمُوا أولادَكم السِّباحة والرِّماية ، ومُرُوهم فليثِبُوا على الخيل وثبًا » .

فلئن كان العرب فى الجاهلية يهتمون بتنشئة شبابهم على صفات البطولة والشجاعة ، فإن حاجتهم إليها بعد الإسلام أولى وأشد . .

ومن أجل العافية كان حث الإسلام على التداوى وأمره بابتغاء العلاج .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧

(٢) البخارى .

« تَدَاوَوْا فإنَّ الله لم يضَعْ داءً إلا وضعَ له دواء ، غير داء واحد : الهرم [١] » .

« لكل داءٍ دواءٌ ، فإذا أُصيبَ دواء الدّاء برئَ بإذن الله عز وجل [٢] » .

وفى كل ذلك ما يقنع المسلم بالحرص على العافية وما ينفره من الضعف والوهن فى أى مظهر كان . .

* * *

ومع قوة البدن واكتمال العافية يحرص المسلم على قوة الإِرادة وثقة النفس فى خطوها فى الحياة .

فليس المسلم أسيرًا لهواه ولا عبدًا لشهواته ، وإلا ضل سواء السبيل . .

« ولا تَتَّبِع الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إنَّ الذينَ يَضِلُّون عن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب [٣] » .

وليس جبانًا عن الجهر بالحق وإعلان الرأْى ، مهما جلب له ذلك من فزع ، فلا يهاب أحدًا ولا يخشى فى الحق لومة لائم :

---

(١) أصحاب السنن .

(٢) البخارى ومسلم .

(٣) سورة ص ٢٦ .

« لايمنَعَنَّ أحدكم هيبةُ الناس من التكلم بحق إذا علمه[1] »

وهو قوى حين يجعل نفسه شهيدًا لله بالحق ، لا يؤثر منفعته ولا يحابى قرابته ، فولاءه لله قبل كل ولاء . .

« يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِين ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا »[3] .

وبذلك نفسر ما كان يشيع بين المسلمين فى الصدر الأول من قوة فى الحق ومن صدق مع النفس ، حتى ليقر الرجل على نفسه وينصف منها الناس ، وليس عليه من شهيد من البشر .

وبهذه القوة نفسر ما كان مفروضًا على المسلمين من صمود أمام المشركين ، رغم تفاوت العدد والعدة . .

« إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[3] » .

---

(١) الترمذى .

(٢) سورة النساء ١٣٥

(٣) سورة الأنفال ٦٥ .

إن المفاضلة هنا بين نفسين ، نفس مؤمنة قوية بالحق واثقة بنصر الله ، وبين نفس كافرة خاوية من العقيدة جاهلة بحقيقة الحياة .

وهذه القوة عنصر أساسى فى تكوين شخصية المسلم ، وبدونها يصبح المسلمون عددًا لا قيمة له ولا طابع يميزه بين الناس . وهم حينئذ أهون على أنفسهم وعلى الحياة من كل هوان ، كما هو طابع الكثرة فى هذا الزمان ، وإلى ذلك يشير قول الرسول صلوات الله عليه :

« يُوشِك أن تَتَداعى عليكم الأُممُ ، كما تتدَاعى الأَكلةَ إلى قَصْعَتِها قالوا : أو من قلة نحن يا رسول الله ؟ قال : لا والذى نفسى بيده إنكم يومئذ لكثير ولكنكم غُثاء كغُثاء السّيل ولينزعَنَّ الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليجعلنَّ فى قلوبكم الوَهن . قالوا : وما الوَهن يا رسول الله : قال : حب الدُّنيا وكراهِيـة الموت [١] » .

فالمسلم حين يضعف إيمانه ويتهالك على المتاع ويخون أمانته ويفلت من رباط دينه ، ويفقد خاصته التى ميزه الله بها ، وتبرد

(١) أخرجه أبو داود .

فى قلبه حماسة الإيمان ويخفت نداء العقيدة ، وهو حينئذ مريض القلب واهن القوة .

ولن يبرئه من ذلك إلا حين يعود إلى الفطرة التى ارتضاها له دينه والصبغة التى ميزه بها بين العالمين :

« فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [١] » .

• • •

(١) سورة الروم ٣٠

الأسئلة

والمسلم يفهم القوة بمعناها الصحيح ، إنها ليست الجبروت والقهر والتطاول بل هى كمال البشرية الذى يتجه بجهد الإنسان إلى الخير وبقوته إلى الرحمة والعدل ، ويجعل منه أداة يحقق الله بها الحق ، ويبطل الباطل .

(أ) ما القوة التى ينشدها الإسلام فى المؤمن ؟ ولماذا ينشد فيه هذه القوة ؟

(ب) ما مظهر عناية الإسلام بالقوة ؟ وما دلالة ذلك بالنسبة لتشريعات الإسلام ؟

(ج) والقوة تجعل من المسلم سنة من سنن الوجود يأتى بالخير أينما اتجه ، ويمكن للحق والخير فى كل مجال ، وضح ذلك .

* * *

أبى كريم

« . . مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا . . [١] »

* * *

تلك حقيقة قرآنية يدركها المسلم فيجعل العزة خلقًا من أخلاقه بحدد وجهته ويميز سلوكه بين الناس .

فليس المسلم الحق ذليلا ولا مستضعفًا ، لأن دينه يأبى له الذلة ، ولا يرضى له الهوان ، بل يجعل العزة حقًّا من حقوق المؤمنين ، وَسِمَةً من سماتهم :

« وِلِلّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ [٢] » .

ومن هنا يفرض الإسلام على المسلم أن يحتفظ دائمًا بعزة نفسه ، وألا يفرط فى كرامته ، ولا يرضى بالدنية والاستكانة .

فإن رضى بالهوان فقد انحرف عن طريق الإيمان ، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة فاطر ١٠

(٢) سورة المنافقون ٨

« من أعطى الذّلة من نفسه طائعًا غير مُكْرَهَ فليس منا [١] » .

• • •

ولا ينبغى للمسلم أن يلصق بالأرض ويقبل الضيم ، أويسام الخسف فلا يتحرك ولا يأبى .

فإن ذلك دليل على هوان النفس وخمود شعلة الإيمان ، فإن طبيعة الإيمان تقتضى الثورة على الذلة ، والإباء على الهوان ، والقوة فى مواجهة الظلم ومكافحة الطغيان أينما كان .

وقد عاب القرآن على الذين استكانوا لقوى الكفر ، ورزحوا تحت سيطرة الطغيان فظلموا أنفسهم وأضاعوا إيمانهم .

« إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِم ، قَالُوا : فِيم كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءتْ مصِيرًا » [٢] .

• • •

والإباء هو النتيجة الطبيعية لعقيدة المسلم التى تجعله يوقن أن الكون كله فى قبضة الله وأن العباد إخوة ، يتفاضلون بالإخلاص

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) سورة النساء ٩٧

والتقوى ، ويتمايزون بالجهاد والتضحية ، فليس فيهم من يستحق أن يحنى له المسلم هامته ويطأطىء له رأسه ، ويشعر نحوه بالرهبة والخشوع .

« فَلَا تَخَافُوهُمْ ، وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[1] .

ومن هنا يحرر الإسلام الناس من عبادة بعضهم بعضًا ، ويجعلهم جميعًا عبيدًا للواحد القهار .

• • •

والمسلم يعلم أن كل ما يحرص عليه الإنسان بعيد عن أيدي الناس . . لا يتصرف فيه إلا الله .

فالرزق والأجل ، والنفع والضرر ، بيد الله وحده .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا »[2] .

« وفِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ »[3] .

بل « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله »[4] ،

---

(١) سورة آل عمران ١٧٥

(٢) سورة هود ٦

(٣) سورة الذاريات ٢٢

(٤) رواه الطبراني .

فالمسلم الحق لايذل نفسه ولا يبذل كرامته ، فى سبيل التكالب على ما سيأتيه بقدر محدود ، وأجل عند الله معلوم .

ولهذا حث الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب الرزق بثقة ويقين ، وفى مهل وتؤدة حتى يحتفظ الإنسان بكرامته ويصون ماء وجهه ، فقال :

« . . فإن جبريل ألقى فى رُوعى أن أحدًا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمِلَ رزقه ، فاتقوا الله وأجْمِلُوا فى الطلب ، فإن استبطأ أحد منكم رزقَه فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لاينال فضله بمعصيته [1] » .

ذلك على الرزق . .

والأجل كذلك مرهون عند الله بساعة وميقات .

« فإذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [2] » .

فلا يقصر العمر قولُ الحق والشجاعة فى مواجهة الباطل ، كما لا يطيله الجبن والاستكانة والخضوع .

• • •

(١) رواه الحاكم .

(٢) سورة النحل ٦١

والنفع والضرر كذلك بيد الله وحده .

فهو القادر على الإسعاد والإشقاء ، وليس فى أيدى العباد من ذلك شىء .

وحين تستقر هذه الحقيقة فى قلب المسلم لاترهبه قوة ولا يؤثر فيه إغراء ، بل يتبع الحق أينما كان ، ويقاوم الباطل مهما أحيط بالقوة والسلطان .

فلن يستطيع البشر إذلال من أعز الله ، أو إعزاز من أذل الله.

« مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ [١] » .

وقد أجمل هذا كله رسول الله صلوات الله عليه حين يقول :

« واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف [٢] » .

---

(١) سورة فاطر ٢ .

(٢) رواه الترمذى .

إن هذه المعانى تزرع الإباء وتنبت القوة وتوسس العزة فى نفوس أبناء الإسلام .

• • •

ولقد كان الاستعمار الذى بليت به بلاد المسلمين فى هذا العصر أعظم ذلة حاقت بهم ، وأكبر طعنة وجهت إلى كيانهم .

فليس هناك أفظع من أن يعيش المسلمون أذلة فى ديارهم ، وقد تحكم فيهم أعداؤهم وسيطروا عليهم .

وهو كذلك لم يتم إلا بعد أن ذابت فى بلاد المسلمين عناصر القوة وماتت نوازع الكفاح .

وهو كذلك لم يتم إلا بعد أن أهمل المسلمون اتخاذ العدة ، والتزود بالقوة ، التى تمنع حرماتهم وتذود عن كرامتهم .

ولئن كانت معظم بلاد المسلمين قد تحررت الآن من عبودية الاستعمار – ولله الحمد – فقد بقيت بعض بلادهم تحت سيطرة الغاصب الأثيم . .

ولن تتم للمسلمين عزتهم ولن يصح إسلامهم إلا إذا طهروا كلَّ ديارهم من ذل الاستعمار ورجسه .

فإن ذلك مقتضى الإيمان ، وثمرة العزة التى يهبها للمؤمنين .

« وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا [١] » .

إن المؤمن لايخضع لسيطرة عدو دينه وعقيدته ، ومفسد وطنه وبلاده ، بل لابد أن تكون إرادته هي العليا وكلمته النافذة..

وفى سبيل ذلك يجاهد ويكافح حتى ينتصر ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وليعيش حرًّا ، آمنًا فى دياره ، عزيزًا فى دنياه . كما وصفه الله :

« . . أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَايَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٢] » .

ولهذا كان الجهاد عنصرًا أساسيًّا فى شخصية المسلم ، يؤدّى به واجبه نحو عقيدته ومجتمعه ، فيعبىء قوته ليكون مستعدًّا فى كل حين لحماية الحرية والدفاع عن الحقيقة ، وإلا فلا يسلم إيمانه ولا يكمل . .

يقول الرسول صلوات الله عليه :

« من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق . [٣] » .

---

(١) سورة النساء ١٤١

(٢) سورة المائدة ٥٤

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

وفى رواية لأبى داود :

« من لم يغزُ ولم يجهز غازيا أو لم يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبلَ يوم القيامة » .

وبذلك يعيش المسلم مشدودًا إلى رباط الجهاد مستعدًّا للبذل والفداء فى كل آن . .

يقول الرسول :

« الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برًّا كان أو فاجرًا[1] » .

إنه واجب المسلم نحو عقيدته أولًا ، فلا يضيره أن يقاتل خلف أىّ قائد ما دام سبيل الله غايته ونصرة الإسلام قصده وتحقيق الحرية أمله .

ولذلك يبادر المسلم إلى تلبية نداء الجهاد ، ولا يركن إلى الدعة أو يجنح إلى السلامة ، وإلا غشيه الذل وضاعت الكرامة :

« انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا وجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ فِى سبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون[2] » .

وحين يتخلى المسلم عن الجهاد ويغفل عن العدو المتربص

---

(١) أبو داود .

(٢) سورة التوبة ٤١

فإنه يخون أمانته وينقض عهده مع ربه ، وهو حينئذ ليس أهلا لحمل رسالة الإسلام وأدائها للعالمين :

« إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا [١] » . .

والفترة التي عاشها المسلمون فى حقيقة الجهاد ، وظلوا فيها على ولائهم للحق والحرية هى التى سعد فيها المجتمع الإسلامى بحريته وعزته ، والتى ضمنت الحرية أيضًا لكثير من الشعوب على مر التاريخ . .

فكان الجهاد خلقًا للمسلم يجعل الموت أحبَّ إليه من الحياة ، وكان فى ذلك سر الفتح وحقيقة النصر ، لاطمئنانهم إلى الهدف ويقينهم بالعاقبة ، وحبهم للشهادة فى سبيل الله . . وكانت أعلى مرتبة يطمح إليها المؤمنون .

قيل يا رسول الله : أى الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله [٢] » .

• • •

---

(١) سورة التوبة ٣٩

(٢) أخرجه الخمسة .

الأسئلة

المسلم الحق ليس ذليلا ولا مستضعفًا ، لأن دينه يأبى له الذلة ، ولا يرضى له الهوان ، بل يجعل العزة حقًّا من حقوق المؤمنين ، وسِمة من سماتهم .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقون لايعلمون » .

(أ) ما الصفة التى يجب أن يتحلى بها المؤمن ؟ ولماذا ؟

(ب) ما الذى تستوجبه هذه الصفة من المؤمن فى معاملاته ؟

(جـ) ما أثر اتصاف المؤمن بها ؟ وما أثر ذلك فى مجتمعه .

• • •

باذل لعونه

لا يعيش المسلم مشغولا بذاته منعزلا عن الناس والحياة ، بل يمدّ يده بالخير والعون ، ويعطى الحياة ما يزيدها أمنًا وسلامًا ، لأنه يفهم معنى الإنسانية ويدرك مسئوليات الأخوة فى المجتمع الذى يحيا فيه .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ [(١)] » .

وهو يعلم أن كيان المجتمع الإسلامى يقوم على أساس أن أفراده وحدة تتضامن فى مواجهة الحياة وتتعاون فى حمل أعبائها ويساند بعضهم بعضًا أمام الأزمات والخطوب .

ولذلك يجعل الإسلام من المسلمين جسمًا واحدًا يشعر بشعور واحد ويقف فى الحياة موقفًا متساندًا .

يقول الله سبحانه :

« والمُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » [(٢)] « إِنَّما

---

(١) سورة المائدة ٢

(٢) سورة التوبة ٧١

المؤمنونَ إخوَةٌ » [١]

وهم لذلك شركاء فى التبعة ، لايتصدعون ولا ينعزلون ولا يتخلى بعضهم عن بعض ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه :

« والمسلم للمسلم كالبنيانِ يشدُّ بعضه بعضًا [٢] » .

وهو تجسيم معبر عن الحقيقة ، فإنه متانة الرابطة بين المسلمين تجعل أيديهم متعاونة ووجوههم متقابلة ، لايرضى أحدهم بخذلان أخيه ، ولا تقر عينه بما يؤذيه بل يرضى له إلا ما يرضاه لنفسه .

وذلك هو مغزى تشبيه العلاقة بين المسلمين بعلاقة أعضاء الجسد بعضها ببعض ، فى قول الرسول الكريم :

« مَثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهُم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى [٣] »

وهذا أقصى ما يبلغه مجتمع من الترابط والتساند ، بل هو أمثل حد يمكن أن تصل إليه الإنسانية فى تكاتفها وتضامنها

---

(١) سورة الحجرات ١٠

(٢) البخارى .

(٣) البخارى .

وتعاونها ، وهو ما يصل إليه المسلم عن طريق العقيدة وعلى أساس الأخــوة . .

ولذلك فإن المسلم يلتزم بحقوق الأخوة ، ويبذل من العون ما يستطيع بمقتضى قبوله لتلك العلاقة ، ويعلم أنها دين يحاسب عليه وأمانة لابد من أدائها . .

وأمامه قول الرسول صلوات الله عليه :

« المسلم أخو المسلم » .

لايَظلمه ولا يُسْلمه .

ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

ومن فرَّج عن مسلم كربةً من كُرَب الدنيا فرج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة [1] » .

وهو يجد راحة نفسه فى تفريج الكرب وتخفيف الضوائق ، وحل المشكلات ، وهو يعلم أنه يعمل بذلك لنفسه ويمهد لها ويخفف عنها فى يوم الحساب . . .

أما ستر العورات فهو غاية رفيعة من غايات الإنسانية التى

---

(١) البخارى وأبو داود .

يصل إليها المسلم حين يألف طريق الخير وتسخو يداه ببذل العون وإشاعة الرحمة بين العبّاد .

وهو يعلم أن ذلك محكُّ الإيمان وموطن الصدق واليقين ، وهو المقياس الحق الذى لايكذب ، حين يقوم على الإيمان ويَصْدر عن بواعثه :

« فَلَا اقْتَحمَ العَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَةُ ؟ فكُّ رَقَبَةٍ أو إطْعَامٌ فى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ، يَتيمًا ذا مقرَبَةٍ أَوْ مسْكينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الذِّينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ، أُولَئِكَ أَصحابُ المَيْمنَةِ [(١)] » .

أما الاشتغال بالشعائر أو التظاهر بالتقوى ، مع الضنّ بالعون وحجب الخير عن الناس ، فهو دليل وهن الإيمان وكذب الادعاء وضلال القصد ، مما يورد صاحبه موارد الهلاك :

« فَوَيْلٌ لِلْمُصلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيمْنَعُونَ الماعُونَ [(٢)] » .

وهكذا يضع المسلم غايات الإسلام فى مواضعها ويتجه إلى

---

(١) سورة البلد .

(٢) سورة الماعون .

طريق الرحمة التى أرادها الله لعباده ، وجعلها مسئولية من مسئوليات الإيمان . .

إنه يرقُّ لآلام الناس ويبذل جهده فى تخفيفها ، ولا يصم أُذنه عن نداء الضعيف والمسكين وذى الحاجة . . كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الراحمون يرحمهم الله تعالى ! ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[١] . .
أما الغليظ الجافى الذى لايرحم الناس ولايمدّ إليهم يدًا ، فهو بعيد عن رحمة الله مطرود من ساحة غفرانه : « لايرحمُ الله من لا يرحم النّاس »[٢] .

وصدق رسول الله : « لاتنزع الرحمة إلا من شقى[٣] ! » .

• • •

والمسلم يبذل عونه للناس فى مراتبه القريبة والبعيدة ، ويبدأ منها بما بدأ الله به . .

فأولى الناس ببره وعونه ذوو رحمه وقرابته ، فهى أقرب العلائق وألزم الواجبات ، كما يقول الله سبحانه :

---

(١) أبو داود والترمذى .
(٢) الشيخان والترمذى .
(٣) أبو داود والترمذى .

« وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ وَلَاتُبَذِّرْ تَبْذِيرًا [١] » .

وصلة الرحم من أعظم القربات التى تعود على المسلم بالخير فى دنياه وأخراه : « من سَرَّه أن يُبْسطَ له فى رزقه ويُنسأَ له فى أثَره فليصِلْ رحمه [٢] » .

وقد سأل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة . فقال له : « تعبُد اللهَ لاتشركُ به شيئًا ، وتقيم الصلاةَ ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم [٣] » .

وحق الجوار كذلك من الحقوق المؤكَّدة التى يوفى المسلم بعهودها ، فهو يحسن إلى جاره ويكفُّ عنه أذاه ، ويقف معه فى الشدائد وينصره إن أصابته مُظْلمة .

« والجَارِ ذِى القُرْبَى والجَارِ الجُنُب [٤] » .

وقد أكد الرسول حق الجوار ولفت الأنظار إلى حرمته :

«مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[٥]

---

(١) سورة الإسراء ٢٦

(٢) البخارى .

(٣) البخارى .

(٤) سورة النساء ٣٦

(٥) البخارى .

ثم ينظر المسلم إلى الحياة كلها نظر الإحسان والرحمة ، ويؤكد فى نفسه معانى الإنسانية التى لاتفرق بين إنسان وإنسان ، بل ولا بين إنسان وحيوان ، فالإيمان فى حقيقته نَبْع لايجف للخير والبر ، تصلح به الحياة ويستقيم به أمر الإنسانية فى كل زمان ومكان .

• • •

الأسئلة

(١)

لايعيش المسلم مشغولا بذاته ، منعزلا عن الناس والحياة ، بل يمد يده بالخير والعون ، ويعطى الحياة ما يزيدها أمنًا وسلامًا ، لأنه يفهم معنى الإنسانية ، ويدرك مسئوليات ، الأُخوة فى المجتمع الذى يحيا فيه .

(أ) ما المنهاج الذى رسمته العبارة لسلوك المسلم ؟

(ب) لمــاذا يجب عليه أن يسير على هذا المنهاج ؟

(جـ) ما أثر احتذاء هذا المنهاج فى حياة الفرد والمجتمع ؟

(٢)

أما الاشتغال بالشعائر ، أو التظاهر بالتقوى ، مع الضن بالعون ، وحجب الخير عن الناس ، فهو دليل وهن الإيمان ، وكذب الادعاء ، وضلال القَصْد ، مما يورد صاحبه موارد الهلاك.

(أ) ما السلوك الذى تنفر منه العبارة السابقة ؟ ولماذا ؟

(ب) وضح معنى كل مما يأتى : الاشتغال بالشعائر - الضن بالعون؟

(جـ) ما النظرة التى يجب أن ينظرها المسلم إلى الحياة حتى يجد أثرها فى معاملة الناس له .

• • •

بعيد عن الحرام

يعلم المسلم أن للإيمان مظهرين : فعل وترك ، وأن جوهر الدين يتمثل فى أداء الفرائض ، واجتناب النواهى ، بل إنَّ اتقــاء المحارم أجْلى مظهر للعبادة ، وأقرب طريق إلى صدق الإيمان . كما قال الرسول صلوات الله عليه : « اتق المحارمَ تكن أعبدَ الناس » .

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، ولَا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »[1] .

• • •

ومن هنا يحاذر المسلم أن يسخط ربه أو يتعدى حــدوده أو ينتهك حرماته ، فيجانب المحرمات ، ويجعل بينه وبينها سدًّا منيعًا من الخشية والتقوى .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١

وهو إنْ فعل ذلك بإيمانه وتقواه واستقامته وهداه ، فإن حقائق الحياة تُثْبت صِدق نظرته وسلامة اتجاهه . .

فإن المحرمات تمثل مجالَ الخطر الذى يهدد الإنسانية ، ويجلب عليها الدمار . . هكذا أثبتت حقائق العلم والحياة . .

ولهذا حرمه الله . .

« ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرهُمْ والأغلالَ التى كَانَتْ عَلَيْهم »[1] . .

ومن هنا يطمئن المسلم فى سعيه ويصم أذنه عن صيحات الفساد والإلحاد . .

• • •

إن المسلم يعلم أنه ليس فى شيء مما حرم الله خير . .

فإن الله سبحانه لم يحرم عليه إلا العدوان والفساد فى الأرض وما يتلفه ويشقيه ويرده إلى أسفل سافلين .

وذلك ما يقطع به نظر العلم والعقل ، أما الجهالة واتباع الهوى فهى التى تغرى الإنسان بانتهاك الحرمات وتزين له طريق الغواية . .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧

ونقطة الخلاف بين الإسلام وأعدائه فى هذا العصر ، أنهم يريدون أن يستبيحوا المحرمات دون فهم ولا علم ، فيردّون الإنسان حيوانًا لا حظر أمامه ولا قيد . .

ولكن الإسلام يرى أن ذلك إفساد فى الأرض ، وضياع للطمأنينة والسلام . .

وهم لا يستطيعون أن يثبتوا بدليل العلم أو العقل أن فى شىء مما حرم الله خيرا للفرد أو للجماعة ولكنهم يهرفون بما لا يعرفون ويتسترون وراء كلمات جوفاء وشعارات .

وهم يُخْرجون المؤمنين بأننا نعيش فى عصر العلم والمدنية ، وأن الحلال والحرام نظرة قديمة إلى الإنسان ، وهم بهذا يجهلون ويخرجون عن حد الإنسانية ولا يعلمون أن الإنسان هو فى كل زمان ومكان .

فمن فجر تاريخ الإنسان وهو يرى مثلا أن الفاحشة خطيئة مستنكرة ، لأنها تهدد أمن المجتمع بالاضطراب ، ويرى أن العلاقة السائغة بين الرجل والمرأة هى الزواج ، وأنّ الأُسرة هى الوضع الطبيعى الذى يستقر فيه الإنسان ويجد فيه طمأنينته وسلامه .

فإذا كانت تلك نظرة البشرية من قديم ، والتى سارت

عليها الأجيال واستقرت فى فطرة الإنسان ، فما الذى طرأ على البشرية فى هذا العصر حتى يريد المفسدون أن يشيعوا الفاحشة ، وأن يمهدوا لها الدعائم ، وأن يوهنوا نظام الأسرة ويضعوا فى طريقه الصعاب . ؟

والمرأة التى كانت قبلَ الإسلام تألف التبرج وتستهين بالعقاب ، فجاء الإسلام فصان كرامتها وأخذ بيدها إلى مستوى الإنسانية ، وحدد لها رسالة تقوم بها فى الحياة . . فلماذا يريدون لها فى هذا العصر أن تنتكس إلى الجاهلية شيئًا فشيئًا ، وأن تمتهن كرامتها وتكتسب بعرضها وتعيش على حساب أنوثتها؟ !

وأى سند لهذا العبث من علم أو فكر ، وأى صلة له بالتقدم والحضارة ؟ !

والخمر . . التى أثبت العلم أنها داء مدمر وعدو مخيف . . ومن أجل هذا حرمها الله . . أى صلة لها بالحضارة والتقدم حتى تصبح طابعًا عصريًا للمدنية فى هذا الزمان ؟ !

* * *

إن الإنسانية توشك على الانزلاق فى مهاوى الهلاك والهبوط إلى درجات الحيوانية ، وهى تسير وراء المفسدين الذين يتملقون الغرائز ويسترضون الشهوات .

فإن التحرج من المحرمات شارة من شارات النُّبل والارتفاع ، ودليل يقظة الفكر وكمال العقل .

والذى لايتحرج مما حرم الله عليه ، يسهل عليه الانفلات من كل قيد ، والهروب من كل تبعة ، والخيانة فى كل عهد .

وعلة التحريم فى كل ما حظره الإسلام جلية واضحة ، تستهدف خير الإنسان وترعى نفع الإنسانية ، وليس ذلك سلبًا لحرية الإنسان ولا إعناتاً له .

فكل مجالات الحياة فيها مباحات وفيها محظورات يمنع الفرد منها رعاية لصالح الجماعة . . فى السياسة وفى الاقتصاد . . وفى الحرب . . وفى كل مجالات المعاملات والارتباطات .

إن الإنسانية لايمكن أن تتقدم بغير هذا السلوك . . فالفوضى والاباحية لاتتفق مع حضارة ولا تقدم . . ولا تصلح بها حياة ولا يطمئن فى ظلالها إنسان .

« والله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا [1] » .

إن فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة قوى نشطة ، تعمل

---

(١) سورة النساء ٢٧ .

بخطط مرسومة وبرامج محددة ، لتغرى المسلمين بالانفلات من دينهم وانتهاك حرماته ، حتى تبعد الشقة بينهم وبين صراطه المستقيم . . ومن الأسف أن كثيرًا من المسلمين يقعون فريسة لهذه القوى الهادمة ، التى تزين الباطل ، وتجعله جزءًا من الحياة ونظامًا من أنظمة المجتمع . . وذلك يلقى العبء على العلماء والدعاة أن يجعلوا الحقائق تتضح فى أنفس الناس ، فيفهمون دينهم ويعقلون أهدافه ، ويحسون بالخطر الذى يتهدد أولاهم وأخراهم من هذا الفساد الذي ملأ شِعاب حياتهم .

إن الباطل لايعيش إلا فى غيبة الحق .

أما حين ينتشر نور الحق وتعمّ هدايته ، فإن الباطل سيفرّ بطبيعته ، لأن هذه سنة الحياة .

« وقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنَّ البَاطِلَ كانَ زَهُوقًا [1] » .

• • •

(١) سورة الأسراء ٨١

الأسئلة

(١)

يعلم المسلم أن للإيمان مظهرين : فعل وترك ، وأن جوهر الدين يتمثل فى أدَاء الفرائض ، واجتناب النواهى ، بل إن اتقاء المحارم أجلى مظهر للعبادة وأقرب طريق إلى صدق الإيمان .

(أ) ما مظهر الإيمان ؟ وضح ما تذكر .

(ب) لمــاذا كان اتقاء المحارم أجلى مظهر للعبادة ، وأقرب طريق إلى صدق الإيمان ؟

(جـ) ما المقصود (بجوهر الدين) وماذا يجب على المسلم تجاه هذا الجوهر ؟

(٢)

إن فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، قوى نشطة ، تعمل بخطط مرسومة ، وبرامج محددة لِتَغْرِى المسلمين بالانفلات من دينهم ، وانتهاك حرماته ، حتى تبعد الشقة بينهم وبين صراطه المستقيم .

(أ) ما السرّ فى تحريم ما حرمه الله على الإنسان ؟ ولمــاذا يفعل بعض الناس المحرم عليهم ؟

(ب) لماذا يحاول أعداء الإسلام إغراء أبنائه بالانفلات من دينهم ؟ وما ضرر ذلك بالنسبة للمسلمين .

(جـ) تعاليم الإسلام تلائم المنطق والعقل والفطرة السليمة وضح . وبين واجب كل مسلم في هذا المجال .

• • •

خاتمة

تلك هى المقومات الأساسية للشخصية المسلمة .

عقيدة . . وعبادة . . وأخلاق .

والمسلم الذى تكونه هذه العناصر الفاضلة ، هو الفرد الصالح الذى يسعد به المجتمع ، ويؤدى دوره فى الحياة .
أما الذى ينحرف عن دينه ويجهل مقوماته ، فهو خطر على نفسه وعلى المجتمع ، وهو عنصر هدام .

نعم . . فالإنسان حين يخلو من العقيدة الدافعة ، والمُثل الموجهة ، والضوابط الخلقية . . يسهل عليه حينئذ خيانة كل عهد ، والانحراف عن كل خير .

ولكن المسلم الحق يسعد وطنه ، ويرقى أمته ، ويعمل من أجل الإنسانية .

وأعداؤنا فى الشرق والغرب لم يغفلوا عن هذه الحقيقة ، فعملوا جاهدين على أن تموت فى المسلمين حقائق الإسلام ، بالجهل ، أو بالفساد والانحراف .

فحين كانوا فى بلادنا شوهوا تكوين الأمة وحالوا بينها وبين

الإسلام ، وأقصوه عن مكان التوجيه والقيادة ، ووضعوا بذور الفساد الخلقى ، وقرت أعينهم حين وجدوا بذورهم تنبت نباتها وتؤتى أكلها ، فتنشأ فى أقطار المسلمين أجيال لاترتبط بدينها ولا تأوى إلى ظلاله ، بل تقف منه موقف الجهل والعداء .

ونحن حين نذكر ذلك نأسف ونأسى .

ولكن الأسف لايغنى عن الواقع المرير شيئًا .

بل علينا الآن ونحن فى مطلع نهضة إسلامية أن نهدم الآثار المفسدة ونزيل الحواجز المصطنعة بين أمتنا وبين الإسلام . . فنتيح لها الفرصة لتعرف دينها على حقيقته ، ونحميها من المفسدين الذين نصبوا أنفسهم موجّهين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن كثيرًا من وسائل التوجيه فى المجتمعات الإسلامية لاترعى للإسلام حُرمة ولا تقيم لمبادئه وزنًا ، بل إن منها من يبتغى سبيلا غير سبيله ، ويدعو إلى غاية تخالفه وتناقضه ، ويرسم خططًا لنقض عراه ، وتوهين قوته .

إنها تدعو إلى التحرر . . من الدين والأخلاق ، ومن الضوابط والحدود .

وذلك هدم . . لا بد أن يقابله بناء . .

وليس إلا التوجيه الراشد والتربية الإسلامية الصحيحة على أساس من الفهم والاخلاص .

إننا نريد أن يرعى الناس حقيقة الإنسانية ، فيفهموا الحقائق ، ويتحرروا من الأباطيل .

• • •

وأرجو أن يكون فى هذا العرض السريع لمقومات الشخصية المسلمة وعناصرها الحقيقية ، ما يثبت الإيمان فى قلوب المسلمين ، وما يهيىء الاحترام والتقدير لهذه الشخصية الكريمة فى أنفس الهازئين والجاهلين .

ويقيننا أن الله سبحانه لن يخذل دينه ، ولن يخفض رايته ، ولن يذل أتباعه . . فإن النصر دائمًا للمؤمنين .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الحيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [1] »

---

(١) سورة غافر ٥١

الأسئلة

(١)

تلك هى المقومات الأساسية للشخصية المسلمة (عقيدة ، وعبادة ، وأخلاق) .

والمسلم الذى تكونه هذه العناصر الفاضلة ، هو الفرد الصالح الذى يسعد به المجتمع ، ويؤدى دوره فى الحياة .

(أ) ما المقومات الأساسية للشخصية الإسلامية ؟

(ب) وضح معنى كل مقوم منها .

(جـ) ما أثر اجتماع هذه المقومات فى الإنسان ؟ ولماذا ؟

(٢)

إن كثيراً من وسائل التوجيه فى المجتمعات الإسلامية لاترعى للإسلام حرمة ، ولا تقيم لمبادئه وزناً ، بل إن منها من يبتغى سبيلا غير سبيله ، ويدعو إلى غاية تخالفه وتناقضه ، ويرسم خططًا لبعض عراه ، وتوهين قوته .

(أ) ما السلوك الذى تنفر منه العبارة السابقة ؟ ولمـاذا ؟

(ب) وضح معنى كل مما يأتى : (الاشتغال بالشعائر . الضن بالعون) .

(جـ) ماذا يجب على كل مسلم نحو المقومات الأساسية للشخصية الإسلامية ؟ ولمـاذا ؟

• • •

فهرس الموضوعات

رقم الايداع بدار الكتب ٨٠/٢٥٧٥



الرقم المرحلى للكتاب

٧ / ٣

طبعـــة ١٩٨٠

مطابع الهيئة المصرية العـامة للكتاب